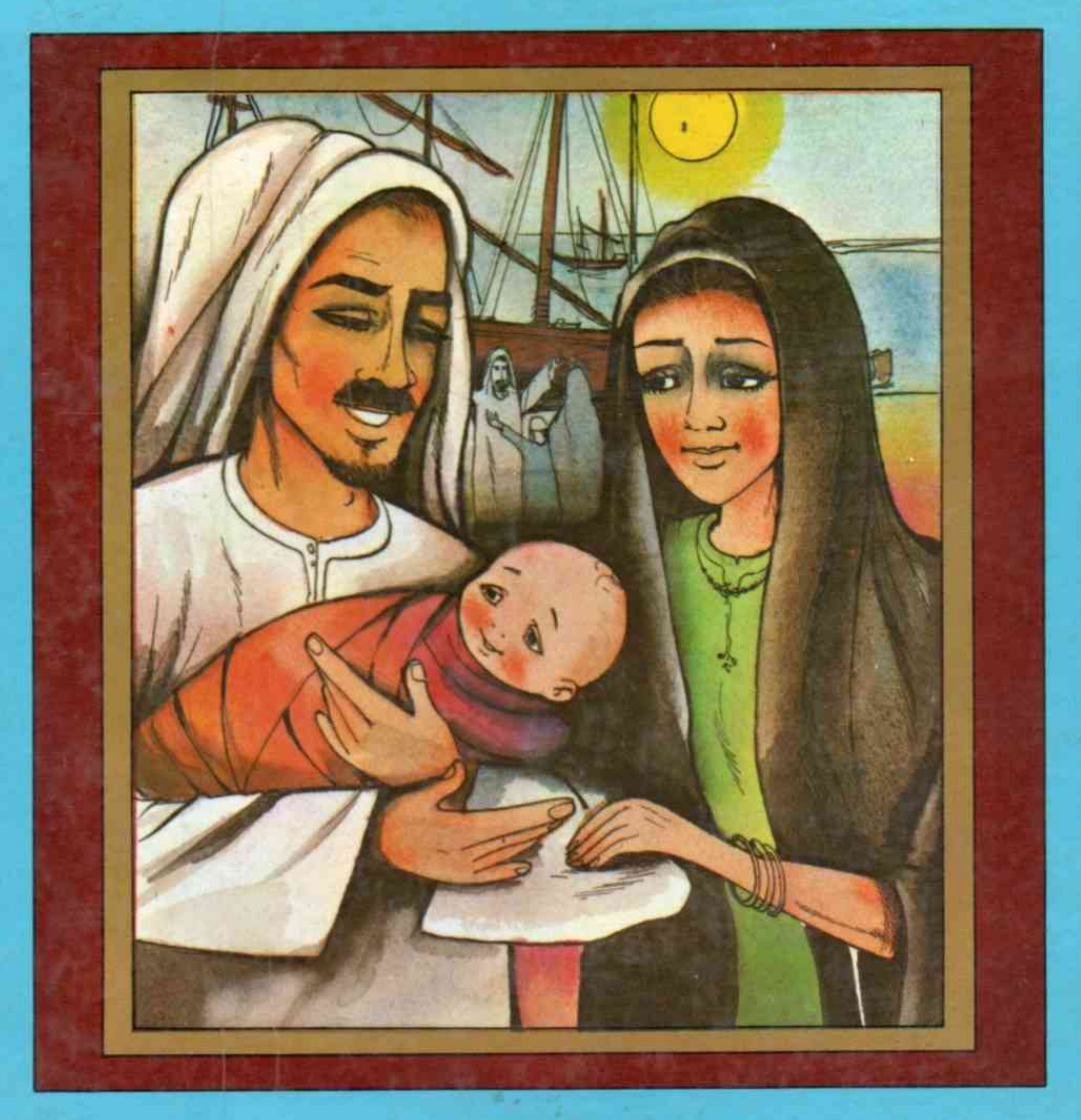
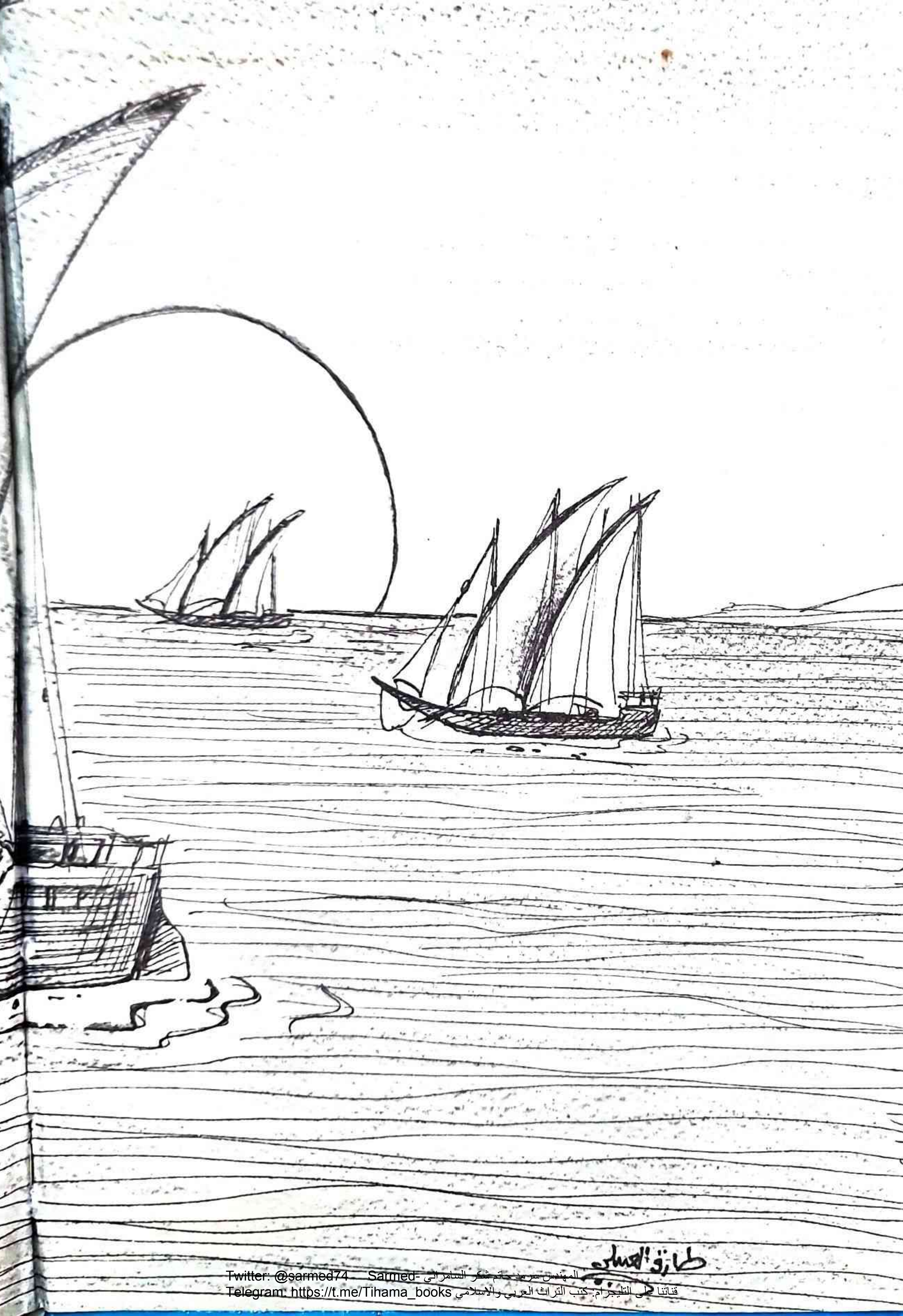
قدري قلعجي

الكويت: التاريخ والنهضة

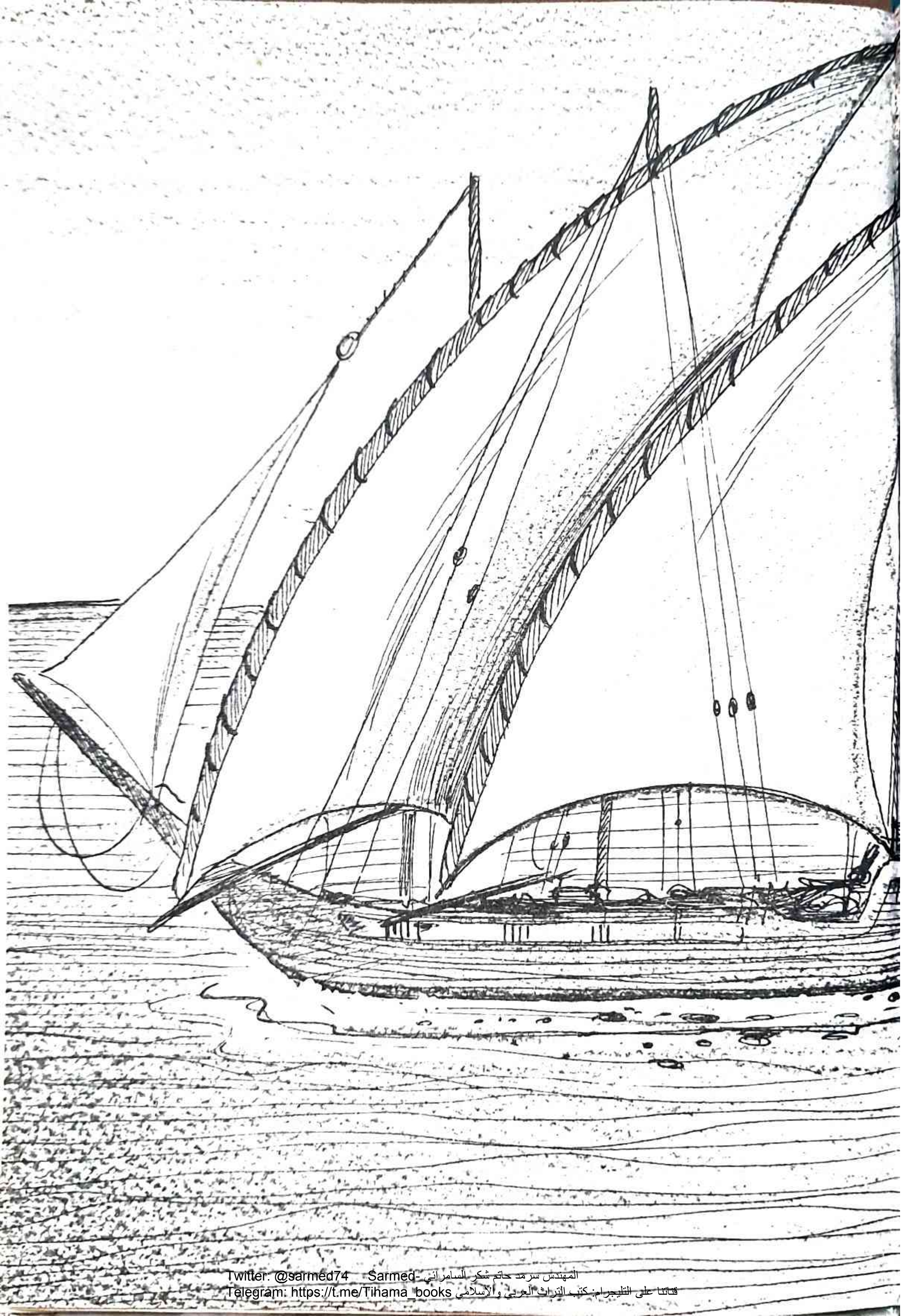
الكويت والبحر



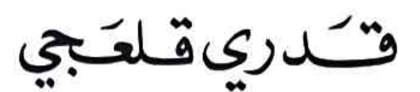
دار الكاتب العربي



Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي



Twitter: @sarmed74 Sarmed-المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي



الكويت: التاريخ والنهضة

الكويت والبحر

دار الكاتب العربي

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي Telegram: https://t.me/Tihama_books

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
فــي 01 / ذو الحجة / 1445 هـ
المــوافــق 07 / 06 / 2024 م

سرمد حاتم شكر السامرائــي

م. سرمد حاتم شكر

الطبعة الأولى

١٩٨١

جميع الحقوق محفوظة

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي



رحلتا الشتاء والصيف

كان ناصر الشرقي قد وعد أولاده بأن يحدثهم عن البحر ، جار الكويت وصديقها القديم ، وكانت منيرة لا تزال في غرفتها وهي التي اعتادت ان تكون أول المتحلّقين حول عميد الأسرة والمتشوقين لسماع حديثه الذي يجمع بين الثقافة والمتعة والتوجيه القويم . والواقع انها كانت تعدّ لأهلها مفاجأة طريفة استوحتها من موضوع الحديث نفسه . فقد أمضت يومين كاملين وهي تبحث في الأسواق ومتاجر الألعاب الأوروبية ، حتى عثرت على ثوب بلاستيكي للغوص بقياس أُختها سميرة ، وها هي تساعدها الآن على ارتدائه وتركّز على عينيها الضاحكتين نظارتيه الكبيرتين ، وتضع في فمها ذلك الجهاز الموصول بقارورة الأوكسجين المعلقة على ظهرها وفي قدميها تلك الأصابع المطاطية التي تشبه أصابع الضفادع ، ثم تفتح الباب فجأة وهي تقول بلهجة مسرحية :

ـ والآن سيداتي سادتي أقدم لكم الغواص الكويتي صياد اللؤلؤ !

ووقفت سميرة أمام الباب وقد قدّمت

احدى رجليها الى الأمام ووضعت يدهـا على خصرهـا وانتصبت قامتهـا بخيــلاء وارتفع رأسها باعتداد ، إلا أنها لم تستطع ان تتمالك نفسها طويلاً فضحكت ضحكة عذبة رقيقة كان لها رنين جرس من الفضّة . ورنّ صوتهـا رنيناً يشبه تغريـد البلبل وهي تقول :

ـ أنا الغــواص .. أنا أسد البحر .. أنا ملك اللؤلؤ !

فابتهــج الحاضرون لهذه المفاجــأة ، وضحك الأب طويــلاً ، ثم قال وهـو يهز رأسه بأسى :

ـ ما ذخرت العين إلا للبكى !

فاضطربت منيرة وهتفت : لماذا يا أبي ؟

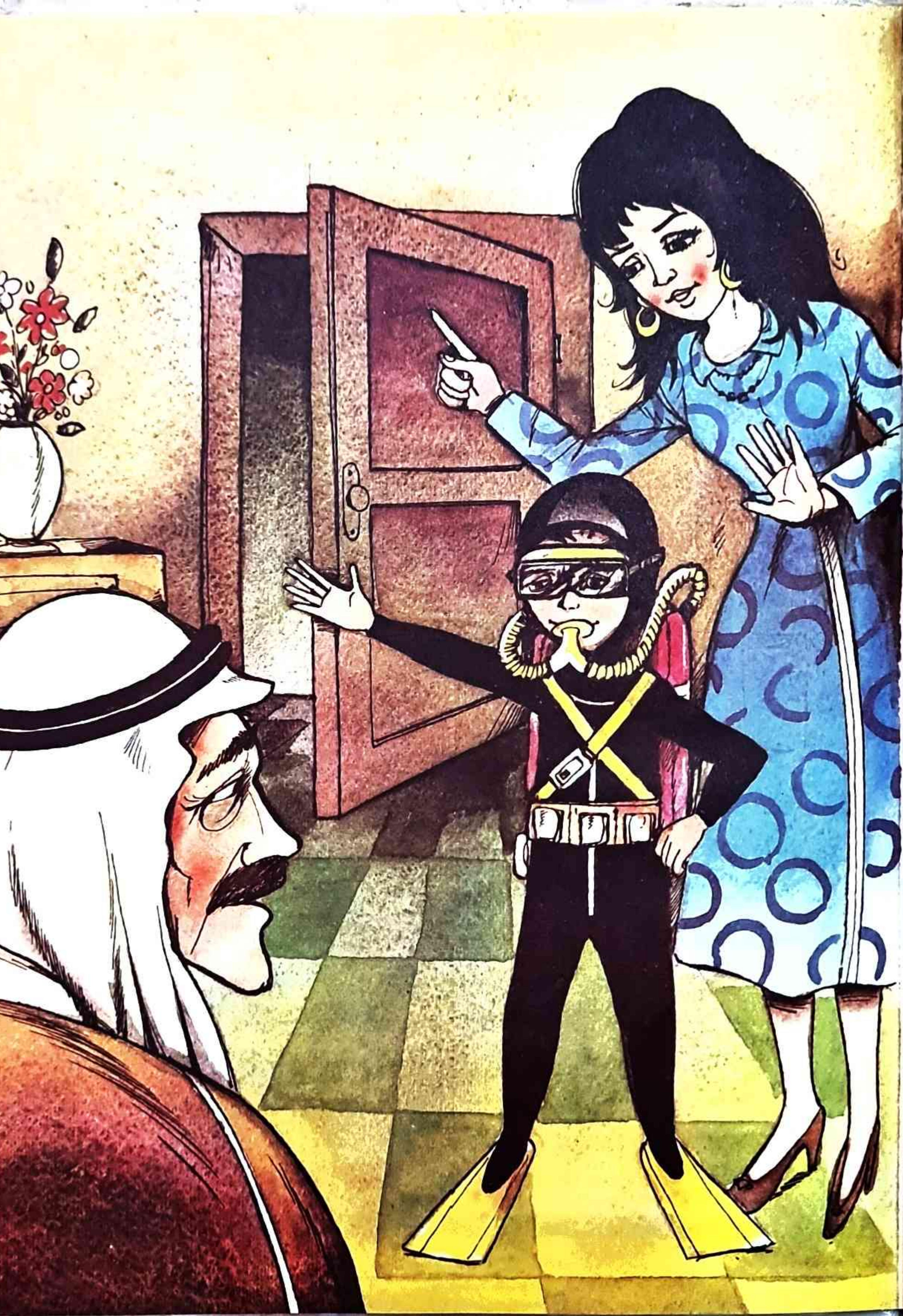
فأطرق قليلاً ثم نظر اليها بحنان وعطف وقال في مرارة : لو كان غواصو الكويـت يرتدون مثل هذا الزي ، لكـانت عمليـة الغـوص ريــاضة محببة ومتعــة مشوّقة ، ولكنهم كانوا يغـوصون بأساليـب بدائيـة شاقة ومرهقة ، وحتى عندما وصلتنا من الغرب بعض الأدوات الحديثة التي تخفف من صعوبة الغوص وتريح الغواص قليلاً ، رأت الحكومة ان من واجبها منع استخدام هذه الأدوات حفاظاً على حقوق الغواصين القدماء الذيـن أفنوا زهــرة شبابهم حتى برعوا في هذه المهنة ، وكانوا يقاسون أهوالها للحصول على الــلآلىء التي تزيــن بها الحسان اعناقهـن ويــطرزن به ثيابهــن ويضعنه في عصائب رؤوسهـن ، دون أن يعلمن كم كلّفت تلك الحبات الجميلة من مشاق وأهوال .

فقال راشد وهو يغمز بطرف عينه ويرمق اخته منيرة بنظرة ذات مغزى :

ـ يا لله ما أشد أنانية المرأة !

فألقى الأب اليه نظرة مؤنبة بينما قالـت منيرة متجاهلة تعريض أخيها : وماذا كان الغواص الكويتي يرتدي إذن؟

فقال ناصر الشرقي وعيناه تلمعان ببريق خاطف : لقد كان يرتدي لباساً بدائياً من القماش الأسود الخفيف ذا سروال وأكمام طويلـة وغـطاء للـرأس متصل به لحمايـة جسده من الأسماك المؤذية ، ولكن كثيرين من الغـوّاصين لم يكــونوا يرتدون سوى سروال أسود يسمى « الشمشول » لئلا



يعوقهم اللباس الكامل عن الحركة .

فسألت منيرة بلهفة : وكيف كان الغواص يتنفس تحت الماء ؟ اننا نشاهد الغواصين في الأفلام السينمائية يقضون وقتاً طويلاً تحت الماء وهم يتنقلون من مكان الى آخر بحثاً عما يفتشون عنه .

بدا التأثر على وجه الأب وأجاب :

ـ هذا شأن الغوّاصين في العصر الحديث المزودين بالأدوات التي تساعدهم على ذلك . أما الغوّاص الكويتي (وكان يسمى الغيص) فكان يضع على أنفه قطعة من العظام تشبه ملقط الغسيل وتسمى « الفطام » طولها نحو إصبع وهي تشبك الأنف لمنع دخول الماء منه ، ويعلق برقبته كيساً من الحبال ذا فتحات متناسبة (الديين) ، ويدخل أصابعه بما يشبه القفّاز الجلدي الذي يغطي الأصابع دون الكف (الخبط) ، ثم يستنشق نفساً طويلاً ويقذف بنفسه في الماء ورجله في حبل (الزيبل) مثقل بحجر أو بكتلة من الرصاص ينزل به الى قاع البحر ثم يتخلى عنه فيسحبه السيب ، في حين تكون يد الغوّاص ممسكة بحبل آخر (الأيدة) يراوح طوله بين ٧٠ و٨٠ متراً هو حبل الانقاذ الذي يشدّه عندما يضيق تَفَسُه فيسحبه به السيب الذي ينتظر هذه الاشارة على ظهر السفينة . في هذه الفترة القصيرة التي يمضيها الغواص في قاع البحر وتراوح بين نصف دقيقة ودقيقتين او ثلاث دقائق في احيان نادرة جداً ، بحسب قدرته على ضبط نَفَسه أو بحسب طول نفسه كما يقولون ، يقوم الغواص بجمع المحار أي الصدف وذلك باقتلاعه من أرض البحر او من الصخور والشجيرات والنباتات والطحالب التي يكون عالقاً بها ، ويضعه في الديين ثم يصعد الى سطح السفينة فيفرغه على ظهرها ويستريح دقائق معدودة ثم يعاود الغوص من جديد ، ويتكرر ذلك من عشرين الى خمسين مرة حسب صحة الغوّاص وحالة الطقس . واذا أفلت الحبل من يد الغوّاص ، أو تأخر لحظات عن الوقت الذي ينبغي له شده فيه ، او سها السيب عن الاستجابة لهذه الإشارة في الوقت المناسب ، قضي عليه لا محالة .

كانت منيرة تصغي مأخوذة فأفلتت من شفتيها صرخة دهشة وعجب وهتفت : يا



له من خطر رهيب !

فابتسم الأب ابتسامة باهتة وقال : ليس هذا هو الخطر الوحيد الذي كان يتعرض له الغوّاص ، وانما هناك أخطار عدة منها ما قد يكون في قاع البحر من كهوف وأودية قد تنهار تحت قدميه أو غابات مظلمة قد يضيع في مسالكها ، ومنها الأسماك المؤذية التي قد تتعرض له وهي الجرجور واللخمة

والدجاجة والدول ، فضلاً عن الارهاق الذي يتعرض له من جراء هذا النوع الشاق من الحياة والنظام الخاص الذي يلتزمه في طعامه ومعيشته طوال أربعة أشهر !

وسأل راشد باهتمام : ما هي هذه الأسماك المؤذية ، اننا لم نسمع اسماءها قبل الآن ؟

فقال الأب : الجرجور هو سمكة القرش المفترسة وتعرف بكلب البحر وهي ذات اسنان حادة قادرة على قطع أي جسم تطبق عليه ، واللخمة حيوان بحري ذو ذيل طويل في أوله شوكة تفرز السم وقد يصل طول هذا الحيوان مع ذيله الى مترين وهو انواع وفصائل. والدجاجة سمكة سامة تشبه الدجاجة ذات وجه مخيف وريش من الشوك السام يحيط بكل جسمها ، والدول حيوان هلامي شفاف يشبه الأخطبوط ذو جسم صغير مستدير تتدلى منه أصابع عديدة أشبه بالخيوط اذا لامست جسم الانسان احدثت فيه حروقاً وأوراماً خطرة ، وهناك أيضاً الذيبة وهي انثى الجرجور وأشد خطراً منه !

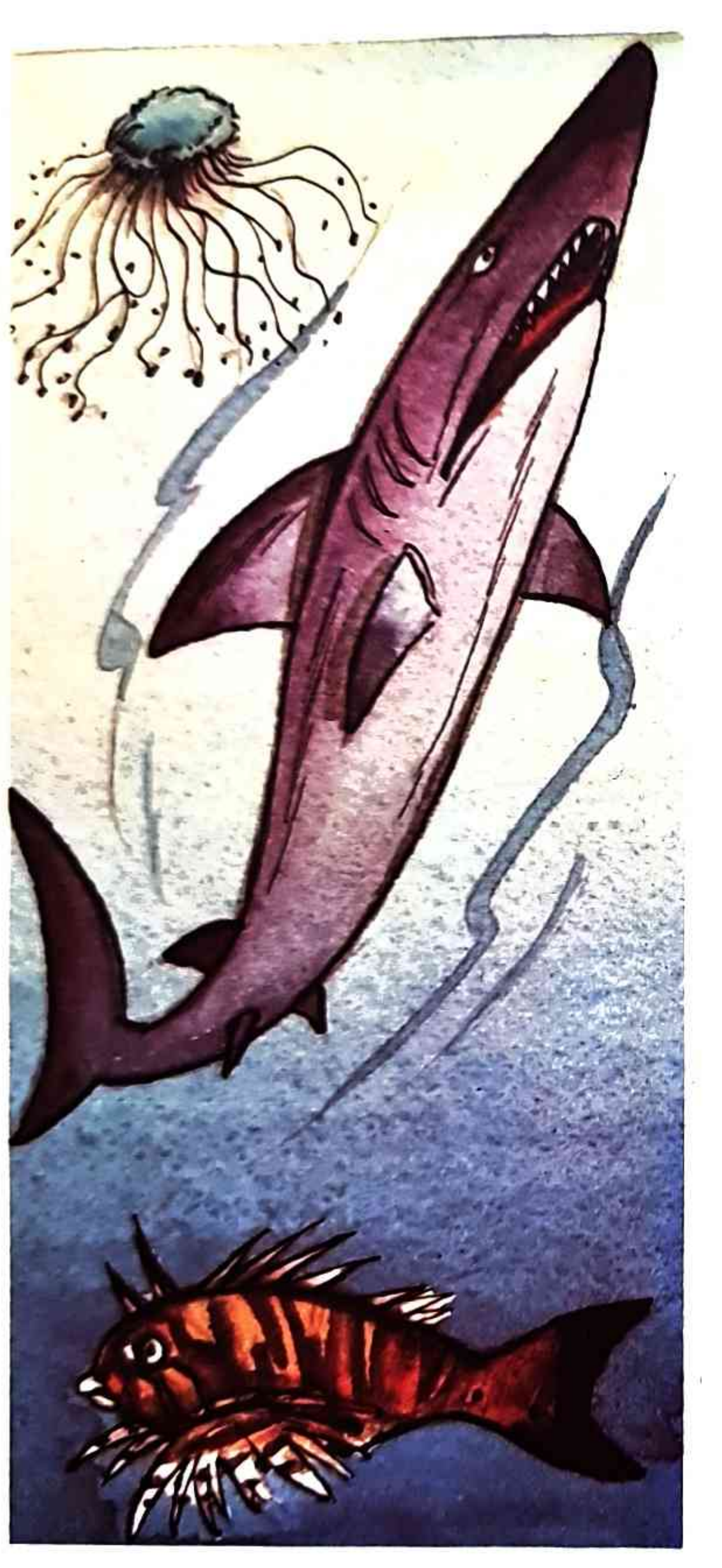
ـ وهل تستمر عملية الغوص أربعة أشهر ؟

ـ انها تستمر على التحديد ١٢٠ يوماً تبدأ في أول يوم من برج الجوزاء (٢٣ أيار ـ مايو) وتنتهي في نهاية برج السنبلة أي برج العذراء (٢٣ أيلول ـ سبتمبر) وهي أكثر أيام السنة دفئاً وأصلحها للغوص ، فاذا ما عادت السفن والملاحون والغواصون من رحلة الصيف هذه ، بدأ الاستعداد لرحلة الشتاء ..

ـ وهل كانت هناك رحلتان ؟

ـ حين يعطل الشتاء موسم الغوص لبرودة الماء ، يبدأ موسم النقل البحري من البصرة الى الهند وباكستان والموانيء الأفريقية ، ويستمر هذا الموسم من أواخر ايلول ـ سبتمبر الى أوائل نيسان ـ ابريل .

وقفت منيرة مشدوهة وأخذت تفكر لحظة ثم تساءلت في ذهول : اذا كان الرجال يسافرون في الصيف والشتاء ، فهل كانت نساء الكويت يعشن لوحدهن طوال العام ؟



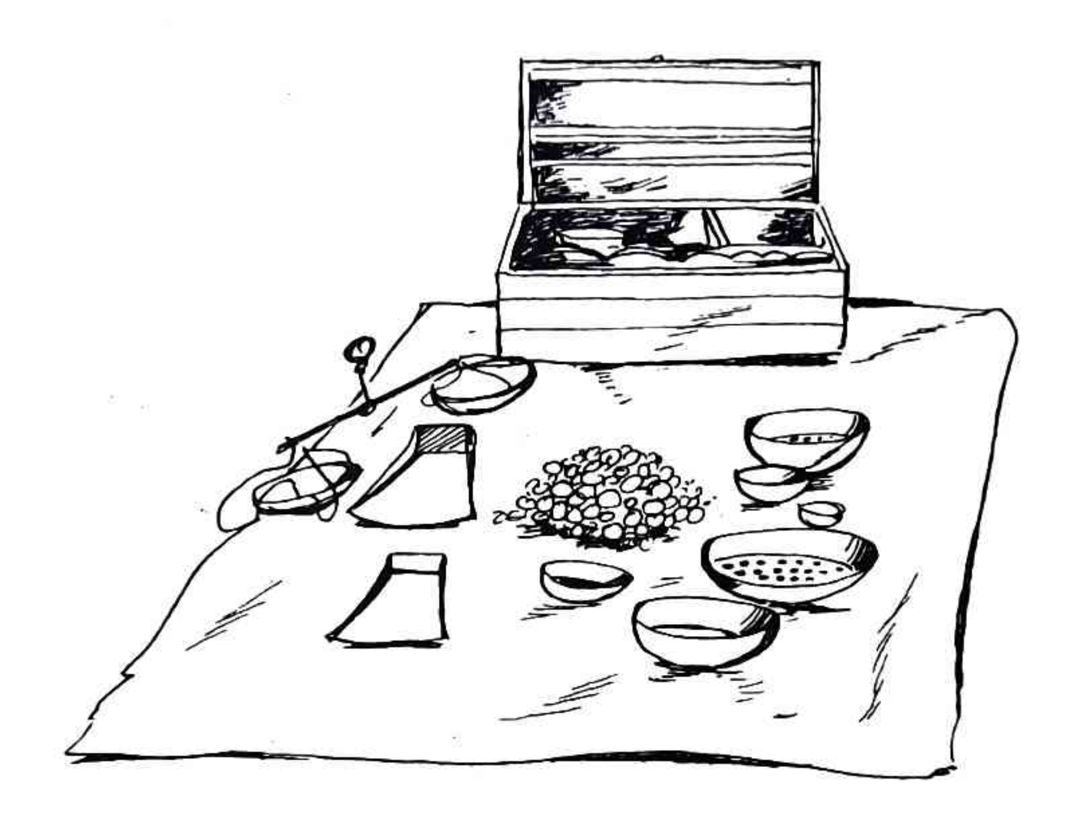
فانفرجت شفتا الأب عن ابتسامة خفيفة وقال في لهجة رقيقة : الواقع ان معظم الكويتيين كانوا يسافرون في الصيف والشتاء ، وكانت النساء يضطلعن اثناء غيابهم بمسؤولية ادارة البيت والعناية بالأولاد .

وقال راشد ممازحاً : لا تخافي يا منيرة لن ندعك في المدينة لوحدك .

فضحك الجميع ونظرت سميرة الى اختها شامتة والتفت راشد الى أبيه قائلاً :

ـ إذن فقد كانت هناك رحلتا الشتاء والصيف ، شأن الكويت في ذلك شأن قبيلة قريش التي حالت تربة بلادها الصخرية دون اشتغال ابنائها بالزراعة ، فالتجأوا الى التجارة وكانت لهم رحلتان تجاريتان في العام ، رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى الشام .

ـ هذا صحيح ، وكما اضطرت التربة المجدبة ابناء قريش الى الاشتغال في التجارة ، اضطرت التربة المماثلة ابناء الكويت للاتجاه الى البحر فكان العمل فيه عماد الحياة ومصدر الثروة ومحور النشاط



الاقتصادي ، ومحصوله هو الدخل القومي في البلاد . والعمل في استخراج اللؤلؤ مهنة قديمة عرفها عرب الخليج منذ العهد الجاهلي ولهم فيها قصائد شهيرة تؤكد ذلك . كما ان المؤرخين والرحّالة العرب مثل المسعودي والبيروني وابن بطوطة وصفوا مغاصات الخليج وطريقة الغوص في العهدين الأموي والعباسي .

ـ وأين توجد مغاصات اللؤلؤ ؟

ـ انها تمتد من الكويت الى آخر الخليج على الجانب الغربي منه ، وهذا ما جعل الخليج العربي أشهر مناطق الغوص على اللؤلؤ وأخصبها ، وهناك مغاصات (هيرات) عادية قد يقلّ المحار فيها أو يكثر ، ومغاصات نجيبة اشتهرت بوفرة المحار ، كما ان اللؤلؤ المستخرج منها قد

يكون ممتازاً او رديئاً ، ويميّز الخبراء اللؤلؤة الجيدة من غيرها ، ولهذا كان لأنواع اللؤلؤ عشرات الأسماء ، وتتوقف جودتهـا على حجمهـا ونقائهـا ، وأفضلهـا جميعـاً « الدانة » وهي اللؤلؤة الفريدة وهي ثمينة جداً ونادرة جداً ، وهناك أيضاً « الـدانة الغلطانة » ويسمونها الحصباة وهـي ثمينة ولكنها دون الـدانة قيمة . ويباع اللؤلـؤ بالوزن كما يباع بالعدد .

ـ وكيف يتكون اللؤلؤ ؟ هل صحيح ان المحار يصعد في الـربيع الى سطح البحر وينفتح فاذا سقطت فيه نقطة من ماء المطر انعقدت حبة ثم أخذت في النمو والبريق حتى غدت لؤلؤة ؟

ـ هذا ما كان يعتقده العرب الأقدمون ، أما العلم الحديث فهو يرى ان المحار ، وهو الحيـوان الهلامي الـذي يعيش في قلـب الصدفة ، اذا دخل اليه جسم غريب مثل حبة رمل أو غير ذلك يفرز دفاعاً عن نفسه مادةً لؤلؤية تحيط بذلك الجسم الغريـب ، وتتكرر عملية الافراز هذه حتى تتألف منه فوق الجسم الغريـب طبقات مستديـرة ملساء تتكون اللؤلؤة منها . وإفراز المحار هو الذي يجعـل جداري المحارة صدفيـاً لامعـاً . وليس في كل محارة لؤلـؤة ، وقد يفتح البحارة عشرات واحيـاناً مئات المحارات دون ان يجدوا لؤلؤة واحدة .

ارتسمت الدهشة على وجه منيرة وقالت : لا ريب في ان مهنة الغـوص قد طبعـت الحياة العامة بطابع خاص .

فقال الأب بصوت هادىء : ان الشعب الكويتي المحصور ما بين الماء والصحراء ، لم ير بدأ وجدب التربة يدفع به الى الفقر والحرمان ، من أن يلتمس رزقه من أعماق البحر في عملية جماعية زادت من تماسكه وتآخيه . ذلك ان عملية استخراج اللؤلـؤ من اعماق البحر لا يمكن ان يقوم بها فرد لوحده ، وانما يقوم بها أفراد لم يلبثوا حتى اتخذوا صفة جماعيـة ، باعتبارهـا المهنة الأساسية في قوام حياتهم . ولهذا كان لا مناص لهم من أن ينتظمهـم عرف من الأعـراف يسيرون عليـه ويستمر بموجبه عملهـم ، وهكـذا نرانا وجهـاً لوجه أمام تقسيمات اولئـك البحّارة ومراتبهـم ، تلك التقسيمات التي اتخذت الأسماء التالية :

١ ـ مرتبة النواخذة الذين يشكلون قمة الهرم في طبقة البحارة مستخرجي اللؤلؤ ، لأنهم الربابنة العارفون بأسرار البحار ومظان اللؤلؤ ، والمالكون سفن الغوص او المستأجرون لها ، فهم عمال وأرباب عمل معاً ، وهم الذين يزودون السفينة بالمواد الغذائية والأدوات التي تحتاج اليها اثناء الرحلة ، ويسلفون البحّارة بعض المال لتستعين به عائلاتهم اثناء غيابهم ، ويبيعون اللؤلؤ لتجاره ويوزعون الحصص على العاملين في السفينة ، وكلمتهم نافذة في ما يشجر بين هؤلاء من خلاف .

٢ ـ مرتبة الغوّاصين .

٣ ـ مرتبة السيوب ومهمتهم سحب الغوّاصين من أعماق البحر وخدمة السفينة والتجديف اذا سكن الهواء أو تعطل الشراع .

٤ ـ مرتبة الرضفاء الذين يساعدون السيوب في عملهم ويكونون غالباً من الفتيان ، والتبابة وهم الأحداث الذين كانوا يرافقون سفن الغوص ولا يتقاضون شيئاً من الأجر اللهم إلا ما يأكلونه على متن المركب من طعام ، لأن الهدف الأساسي من مرافقتهم لمراكب الغوص تعلم المهنة وحسب .

ـ وكيف كان العاملون في الغوص يتقاسمون ريعه ؟

ـ لقد كان لكل من النوخذة والحكومة والغوّاص ثلاثة أسهم . وذلك بعد استخراج حصة السفينة وهي خمس المحصول واستخراج نفقات الرحلة من زاد وماء وأدوات ، أما السيب فنصيبه سهمان ولكل من الرضيف والنهام والطاهي سهم واحد . وقد ضرب عيسى القطامي المثل العملي التالي عن سفينة يفترض انه كان يعمل فيها ٢٥ غواصاً و٢٩ سيباً ورضيفان وان محصول السفينة بلغ ٨٥ ألف روبية . ونفقات الطعام والمؤونة ٩٠٦٢ روبية ، ففي مثل هذه الحالة تستخرج حصة السفينة لصاحبها أي خمس المحصول وهو ما قيمته ١٧ ألف روبية فيصبح المبلغ المتبقي ٦٨ ألف روبية تحسم منها نفقات الطعام والمؤونة فيبقى ٥٨٩٣٨ روبية . ولما كان نصيب الغواص ثلاثة أسهم فيصبح



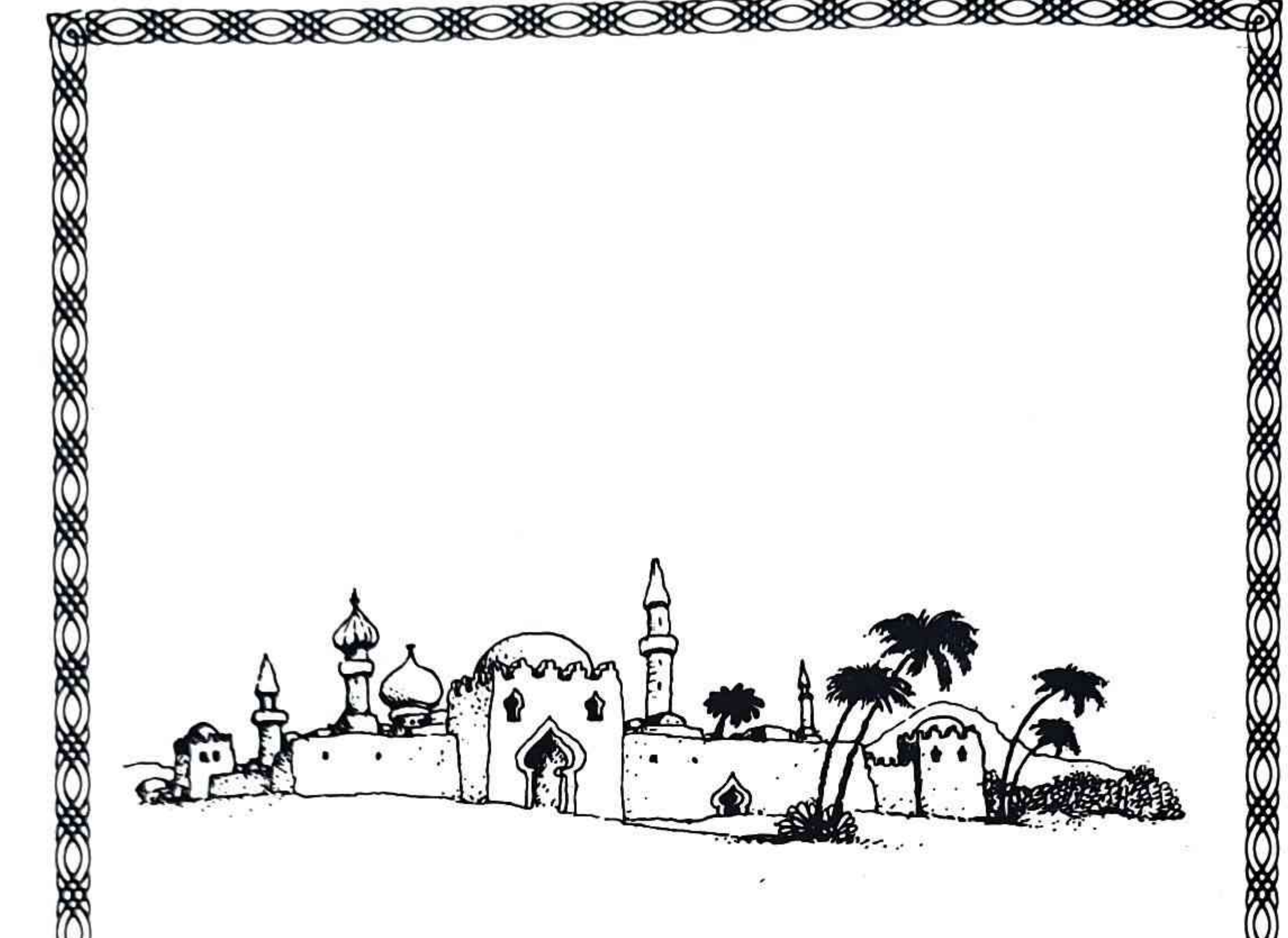
مجموع أسهم الغـوّاصين ٢٥ × ٣ = ٧٥ سهماً يضاف اليهـا نصيـب النوخذة والحكومة أي ستة أسهـم فيصبح مجموع الأسهـم ٨١ سهماً ، واذا أضفنا اليهـا نصيب السيوب وهو ٢٩ × ٢ = ٥٨ سهماً وسهمين نصيـب الـرضيفين بلـغ مجموع الأسهم ٨١ + ٥٨ + ٢ = ١٤١ سهماً . فاذا قسّم المبلغ المتبقي على هذه الأسهم يصبح مقدار السهـم الـواحد ٥٨٩٣٨ ÷ ١٤١ = ٤١٨ روبيـة وبما ان للغـوّاص ثلاثة أسهـم فيكـون نصيبه ٤١٨ × ٣ = ١٢٥٤ روبيـة ، والسيـب ٤١٨ × ٢ = ٨٣٦ روبيـة ، والـرضيف ٤١٨ روبية .

واذا القينا نظرة متفحصة على جوهر هذا الموضوع ، ألفينا المركب ، وهو يمثل وحدة العمل الانتاجية ، تميّز ملكيته الى حد بعيد سمات ذلك المجتمع وتركيبه معـاً ، لأن النوخذة هو الـذي يشرف على عمليـة الانتاج ، ويعمـل البحّارة حسب مشيئته وتعليماته ، لا يعصون له أمراً ولا يخالفونه برأي ، لأن تلك المخالفة قد تودي بحياتهم

جميعاً . وهو من ناحية أخرى يقدّم لهم الغذاء طوال فترة العمل ، ويجري حساب كلٍ منهم حسب ما هو متعارف عليه ، حتى اذا ما انتهى موسم الغوص انتقل اللؤلؤ من أيدي النواخذة الى أيدي التجار (الطواشين) وقد يتم ذلك في عرض البحر أو في أسواق المدينة ، ومن ثم يأخذ اللؤلؤ سبيله الى الأسواق العالمية ولا سيا الهند . وكان الأسطول التجاري الكويتي كثيراً ما يصل الى الثغور الهندية او الصينية من جهة ، والشرق الأفريقي من جهة ثانية ، حيث كان التجار الكويتيون يقايضون أهل تلك الأمصار لآلئهم بالمنتوجات التي يحتاج اليها مواطنوهم .

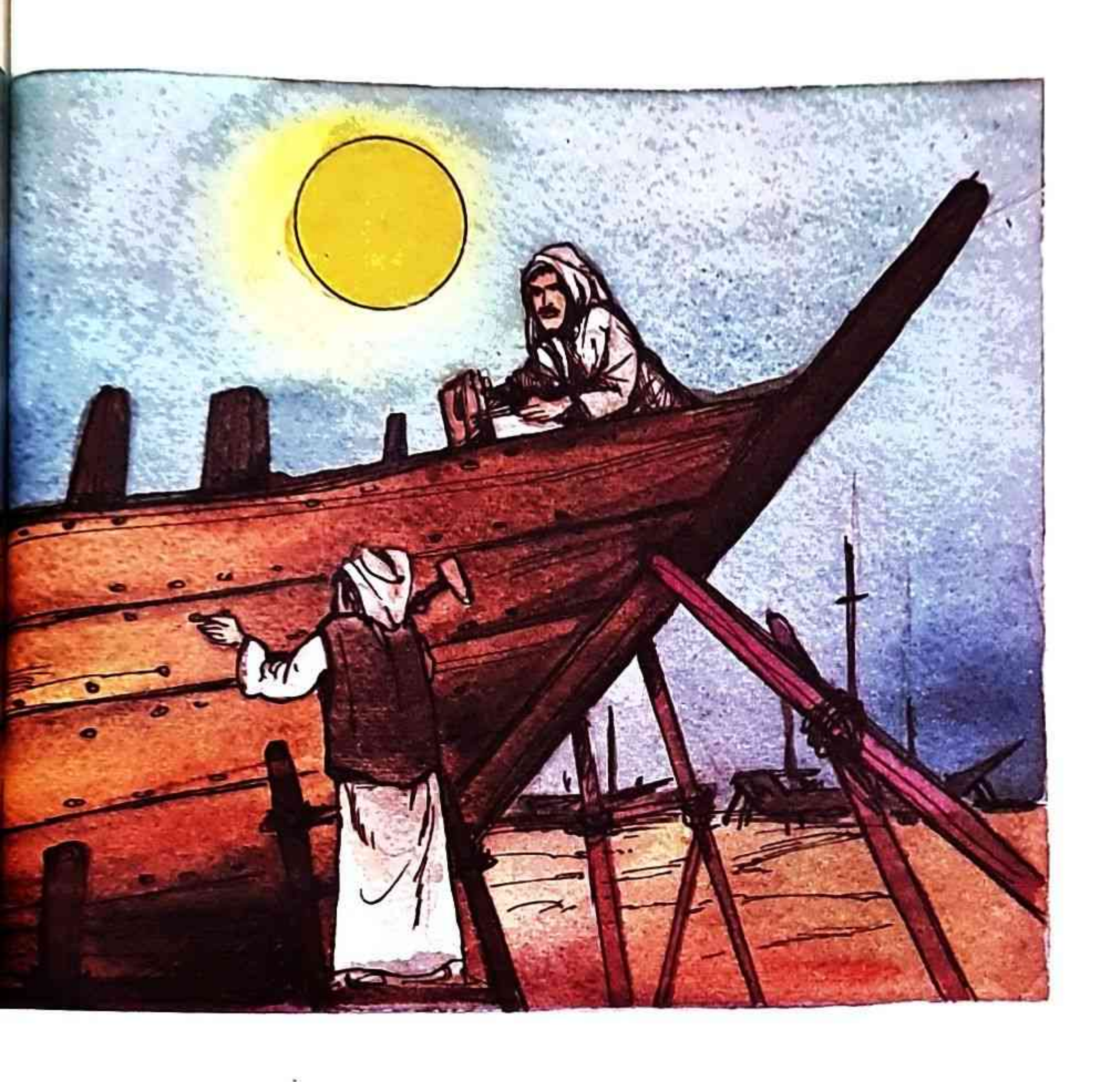
لقد كان المجتمع الكويتي يقوم على أساس التنظيم القبلي البدوي وقوامه رب الأسرة الذي تشبه سلطته الى حد كبير سلطة النوخذة في المركب ، فكلاهما مسموع الكلمة ورأيه بمثابة القانون الذي لا يُردّ ، وهكذا تتلاقى البيئتان البرية والبحرية متطابقتين متكاملتين . وكثيراً ما شبَّ أبناء الأسرة الواحدة وتزوجوا دون ان ينفصلوا عن أبيهم يعيشون في كنفه وفي داره التي تضم في ما تضم غرفة واسعة تدعى « الديوانية » يجتمع فيها رجال الأسرة ومن حالفهم أو تبعهم من الأسر يتدارسون المشكلات الخاصة والعامة ، كما يلتئم شملهم أثناء الأعياد والمناسبات الهامة ، ومن الملاحظ ان هذه الديوانية لا تُنسب لرب الاسرة وانما تُسمى باسم الأسرة على اعتبارها رمزاً لتنظيم اجتماعي أكثر مما هي رمز لأسرة .

وحتى التعليم نفسه ، على الرغم من قدسيته ومثاليته ، ارتبط أوثق ارتباط بالنظام الحرفي وبمتطلبات هذا النظام ، كأنما هو انعكاس الواقع الذي تمّ على ضوئه اختراع الأبجدية التي نشأت أول ما نشأت لتنظيم فواتير التجّار الفينيقيين وضبط حساباتهم . وكان هدف التعليم في الكويت يومذاك ، الى جانب نزعته لاشباع الميل الفني والتذوق الأدبي والمتعة العلمية والوقوف على تعاليم الشريعة السمحاء ، يرتبط أوثق ارتباط بمتطلبات حساب الغوص وقطع المسافات وتنظيم



فاتورة حساب اللؤلـؤ وتسجيـل أسماء المشترين والبائعين .

لقد شغلت عمليـة البحث عن اللؤلـؤ واصطياده وبيعـه ، جانباً مهماً من حيـاة الكويت ، حتى بلغ عدد العاملين فيها في مطلـع القرن الحالي ثمانين ألفاً ، منهـم الغوّاصون الذين يقتلعون المحار ، ومنهم البحّارة الذين يعملون على ظهر المركب.



ومنهم التجار الذين يشترونه ويصدّرونه . وقد بلغ اسطول الغوص في سنة ١٩١٢ نحواً من ٨٥٠ مركباً حتى لقد كان في الامكان الانتقال مشياً من مركب الى مركب على طول الساحل مسافة ثلاثة كيلومترات ، وسميت تلك السنة « سنة الطفحة » لشدة ما رأت من إقبال على صيد اللؤلؤ ورواج تجارته .

أما الصناعات الأخرى فقد كانت ترتبط الى حد بعيد بالمهنة الأولى وهي



صيد اللؤلؤ . ومثال ذلك صناعة السفن التي مهر الكويتيون بها وبرعوا ، ثم صناعة شبك الصيد التي هي من ألزم مستلزمات البيئة البحرية . ومما يثير الانتباه وتتلاقى حوله تقاليد البادية القائمة على تبجيل الكبير واحترامه والثقة به ، مع تقاليد الحرفة والانصياع الى النوخذة واحترامه والركون الى استقامته ، ان طابع التعامل كان قائماً على أساس الثقة المتبادلة ما بين النوخذة ومعاونيه ، ولم

يكـن هناك من داعٍ لوجود الأسناد والوثائق .

وحتى التقسيم الزمني كان مرتبطاً بموسم الغـوص والبيع ، والسنة فصلان : فصل العمـل والانتاج ، وفصل تصريف هذا الانتاج . وتدبّ الحركة في الأسواق وتزدهر التجارة قبل موسم الغوص استعداداً له ، وبعـد المـوسم انتفاعـاً بخيراته ، ويسود المجتمـع اثناء المـوسم هدوء وركـود . أما الحياة الثقافية والفنية فأثر العمل البحري فيهـا واضح كل الـوضوح ، لأن معـظم الأغـاني والألحان والقصائد والـرقصات والحكايات الشعبيـة كانت مرتبطة بحيـاة البحر والغوص والسفر .

بيد ان المركب لم يبق وحدة الانتاج في المجتمع الكويتي الذي ساده نظام الحرفة ، وانما حدث تغير في نظام الملكية ، أي في العلاقات الاقتصادية ، أدى الى تغيرّ في سمة النظام الاجتمـاعـي . وذلك ان النواخذة ، ولا سيما الجدد منهـم ، كانوا يلجأون الى تجّار اللؤلؤ بغية تمويل مراكبهم بما يلـزم البحّارة من مواد وغـذاء في رحلاتهـم ، وكثيراً ما كان الـكساد ينشر غلائلـه السوداء على المنطقة ، مما يضطر النواخذة الى بيع مراكبهـم من التجار ، ويعملـون فيهـا مستخدمين مهارتهـم ومعارفهم العلمية ، وهكذا غدا التاجر شيئاً فشيئاً المهيمن الأكبر على مصير اللؤلـؤ . وكان ذلك بداية انتقال الكويت من مجتمع حرفي الى مجتمع تجاري . وساعد على ذلك النكسة التي اصيبت بها مهنة الغوص بعد ان انتجت اليابان اللؤلؤ المولَّد (الصناعي) الـذي غزا اسواق العالـم منافساً اللؤلـؤ الطبيعي ، فمرت هذه المهنة بأزمة شديدة ، وتحوّل اسطول الغوص بكامله الى أسطول تجاري يجوب البحار في الأسفار البعيدة ، ولعـب دوراً مهماً خلال الحربين العـالميتين الأولى والثانيـة بسبب ظروف الحرب وتسخير البواخر للشؤون الحربيـة وندرة المخصص منها لنقل البضائـع ، والقيـود الاقتصاديـة التي فرضت في معـظم دول العالم ، بينما ظل التاجر الكـويتي يتمتـع بحريـة التنقـل وحريـة التصديـر والاستيراد . وقد استفاد الكويتيون كثيراً

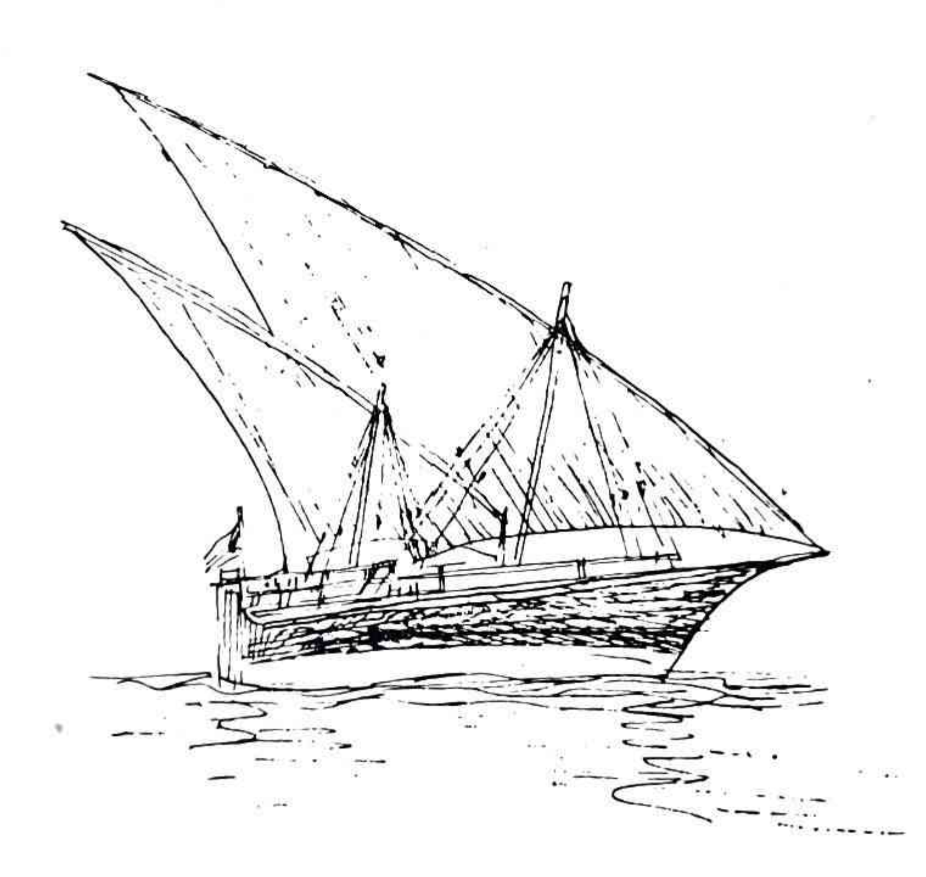
من هذه الظروف ولا سيما اولئك الذين تعوّدوا المغامرة وركوب المخاطر .

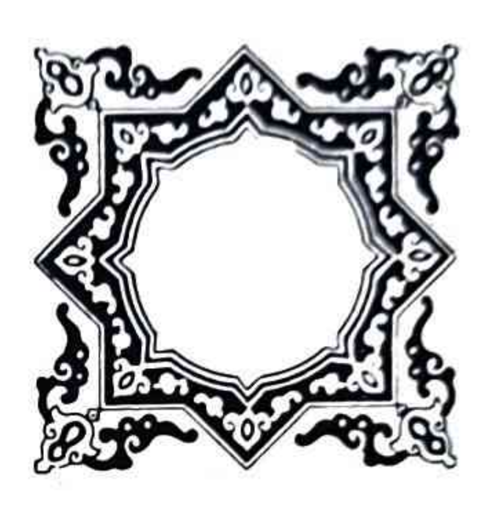
وصمت ناصر الشرقي وطال صمته حتى حسب أفراد عائلته ان حديثه قد انتهى ، فقال راشد في لهجة رقيقة :

ـ اعتقد بأنك قد اعطيتنا صورةً مجملة عن مجتمع الغوص ، وصار في وسعنا القول بأننا نعرف الشيء الكثير عن تاريخنا وأجدادنا ..

فنظر اليه الأب بعينين صافيتين وقال بصوت حار النبرات :

ـ كلا .. ان تلك الصورة لم تكتمل وحديثنا لم ينته بعد ، وهذا النهار مخصص بكامله للبحر وأهل البحر ، وسوف أروي لكم حياة أسرة صغيرة من أسر العاملين في الغوص .. وأرجو ألا يقاطعني أحد حتى نهايتها .. إنها حكاية تعرض التاريخ من الداخل كما عرضته هذه المقدمة من الخارج ، ولن نستطيع فهم التاريخ إلا اذا تغلغلنا الى قلبه وضميره .





عَودة الطيور المهَاجرة

دنا فصل الربيع وبدأت الطيور المهاجرة تمر في سماء الكويت بعد انتهاء هجرتها عائدة الى مواطنها في الشمال ، وتورّدت خدود الأطفال وانطلقوا يلعبون في الأزقة والبهجة تغمر قلوبهم ، وينصبون فخاخهم لاصطياد ما يتخلف من تلك الطيور في بعض المرتفعات لتبني لها أعشاشاً فيها .

وانعكست أفراح طيور الربيع في الجو والبحر ، وعلى شجيرات الرمث والأعشاب والحشائش الصحراوية ، فاخضرّت الأرض قرب الساحل وعلى طوله شرقاً وأكسبته جمالاً جديداً ، وتفتحت أزهار الحلفاء في الجنوب وكأنها السنابل ، وأطلت بين أوراق العرفج الزيتونية وأوراق الحمض

الرمادية الأبرية زهور وردية ، وبدأ نسيم الصحراء يحمل عطر الزهور البرية .

كانت السماء صافية الزرقة تستقي منها العين ولا ترتوي ، وشمس الصباح تتشابك وتنحدر أشعتها فترسل مع روعة المشهد الدفء الذي يهزم برد الليل . وبدت الدنيا وكأنها اكتست مزيداً من الضياء ، واتسع الأفق عما كان عليه في الأيام الماضية . كان كل شيء موحياً وجميلاً ، الشمس المشرقة في كبد السماء ، والصحراء المترامية خلف الأسوار ، والغناء البدوي الذي يتناهى من خيمة بعيدة ، وأيدي النسيم التي تتلاعب بغدائر الموج ، وتحليق الطيور وهي تنطلق في الهواء النقي الشفاف لتغيب في كبد السماء اللازوردية حتى لتبدو كأنها نقط صغيرة في الفضاء .

ولكن نجمة كانت كئيبة وحزينة لم يتفتح قلبها لهذا الجمال العارم ولم تستجب لندائه العميق ، بل ان هذا الجمال ذاته هو الذي سبب حزنها وأثار كآبتها ، فقد جاء مع الربيع والطيور المهاجرة ، الدفء الذي يجعل مياه البحر صالحةً للغوص ، وبدأ زوجها أحمد يستعدّ للسفر ، وأخذت تتهادى في الميناء مئاتٌ من السفن تختلف أحجاماً وأسماء ، بعضها يتسع لعشرات وبعضها يتسع لمئات . وهرع البحارة الى هذه السفن ينظفونها ويطلونها ويصلحون اعطالها ويكتبون الآيات القرآنية على جوانبها ، استعداداً للغوص الكبير . ومنذ طفولة نجمة وفصل الربيع لا يعني لها الا رحيل أبيها وإخوتها وأبناء عمومتها . وفي كلّ رحلة مغامرةٌ تتجمع خيوطها من أهوال البحر ومفاجاته العديدة . ولكلّ سفينة حكايةٌ تلملم حروفها من الموانىء البعيدة .

أما الآن فان قافلة المسافرين ستضم بالاضافة الى كل أولئك الأحباء ، زوجها أحمد الذي لم يمضِ على اقترانه بها سوى عشرة أشهر ، وسوف يغادرها وهي حامل في شهرها الثامن ، تاركاً إياها في رعاية أبيه الحاج عمر وشقيقه محمود ابن الثانية عشرة ، مع وعدٍ بأن يحمل اليها دانة فريدة شبيهة بتلك الدانة التي قُدّمت الى ابنة كبير تجار البصرة مهراً لها ، وكانت هذه الفتاة قد أعلنت انها لن تتزوج إلا من بحار يأتيها بلؤلؤة بحجم بيضة

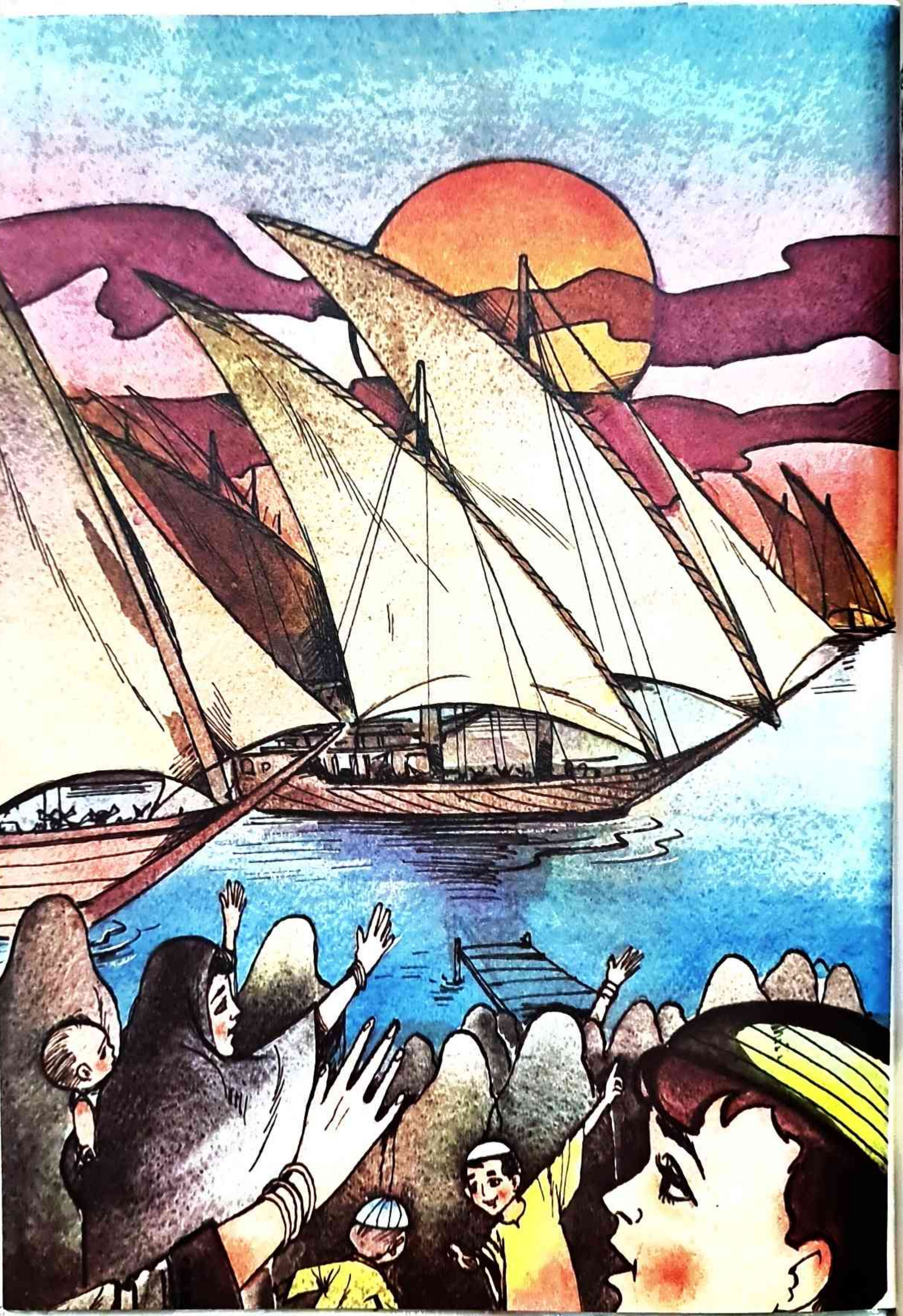
الطائر. فتبارى الغواصون في العثور على لؤلؤة بهذا الحجم ليفوزوا بقلب حسناء البصرة. ولم يظفر بهذه الأمنية إلا بحار كويتي شجاع. وكانت نجمة تعلم ان هذا الوعد ليس سوى حلم بعيد يعللها به ويدغدغ خيالها لتحمّل آلام الفراق.

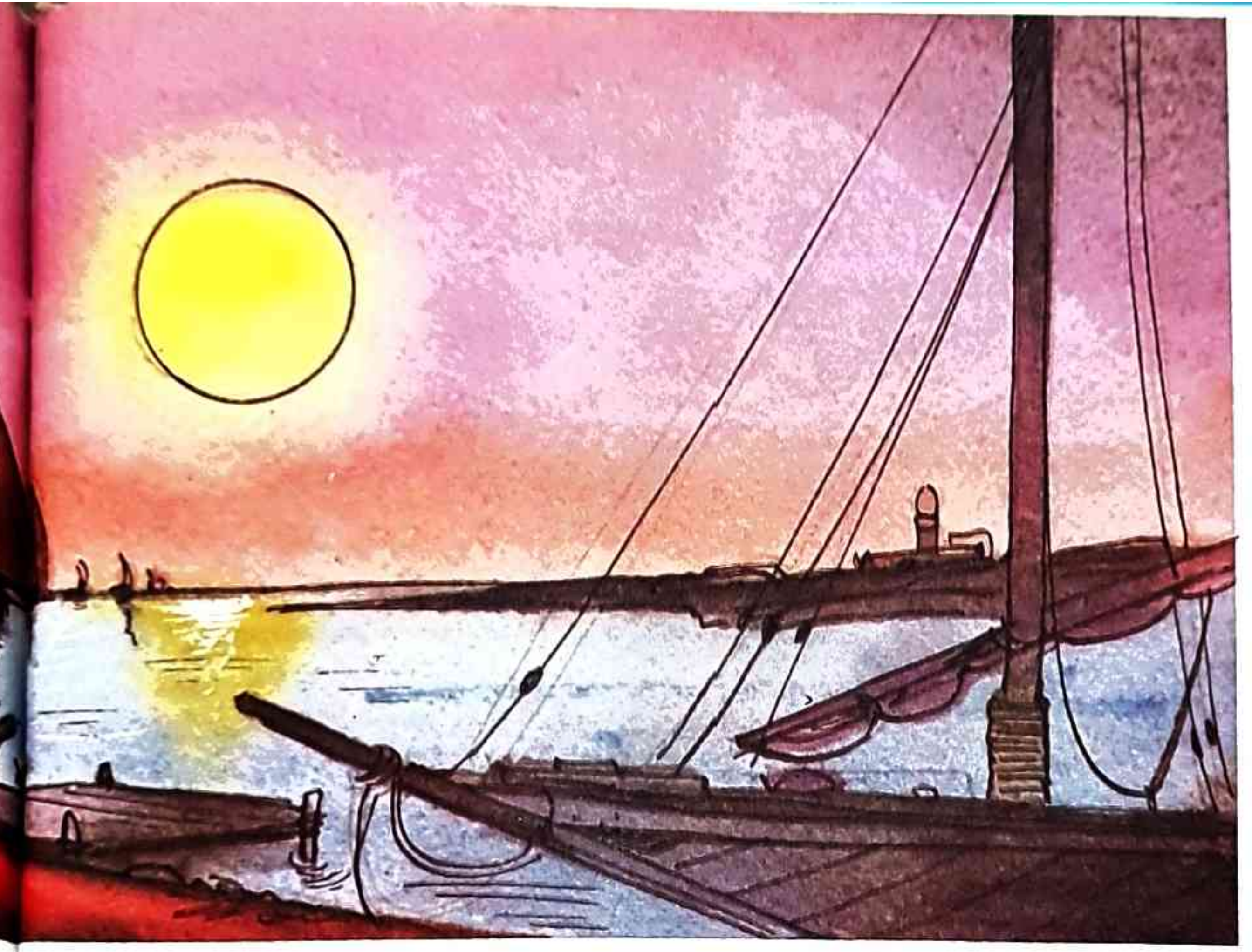
ومرّت الأيام مسرعة، فعمرُ الربيع قصير في الكويت وسرعان ما يطرده الحرّ اللاهب. واشتدت الحركة في الأسواق وعلى الميناء. واستلف أحمد من النوخذة بعض المال فزود بيته بقليل من الأرز والدهن والطحين، وترك في يد زوجته ما تبقى معه من الروبيات لتشتري الكاز والكبريت والماء والشاي والملح والسكر واللحم والخضار كلما احتاجت الى ذلك. ولكنه ما لبث حتى عاد وأخذ من هذه الروبيات اثنتين وهو يضحك، وسألته عن ذلك فقال ان زميلاً له أعطى زوجته من سلفته ورقة واحدة من فئة العشر روبيات، فوضعتها على كيس الطحين ريثما تخبئها في الصندوق، فاذا بعنزتها تلتهمها. وحار البحار في أمره لأن سلفته قد نفدت ولم يبقَ لديه ما يعطيه لزوجته لتستعين به أثناء غيابه. فاتفق أصدقاؤه وهم خمسة على أن يجمعوا هذا المبلغ ويقدّمه أحدهم الى الزوجة دون أن يعرّفها بنفسه أو يطلعها على مصدر المال. ثم أضاف:

ـ لا بأس عليك فان والدي لن ينقطع عن صيد السمك وهو والحمد لله ماهر وموفق في عمله!

وحين تحدد يوم السفر امتلأ البحر بسفن الغوص السمراء الداكنة واعلامها الحمراء تخفق في مقدماتها، ومجاذيفها البارزة تلتمع في أشعة الشمس. وزحف سكان المدينة الى الشاطىء لتوديع أهلهم وأصدقائهم، وبدأ البحارة يصعدون الى سفنهم ويرتبون صررهم، وهم ينشدون: « هيلا هيلا يا هيلا. بدينا هايْ هاي هايا ».

ولما اكتمل في كل سفينة جميع رفقاء الرحلة، نهض البحارة الى الحبال فنشروا الأشرعة البيضاء لكي يدفع بها الهواء فتمخر السفن عباب البحر على قرع الطبول وهزيج البحارة، وأخذ الربابنة يقودون سفنهم بمهارة مذهلة فهم يبحرون





في هذه المنطقة منذ عشرات السنين ويعرفون كل نقطة من مياه البحر فيها ، وكانوا يرددون مع أعوانهم : « يا الله يا الله ، شلنا وتوكلنا على الله ... ربي عليك اتكالي » في حين كان النهام (الحادي) يغني بصوت شجي :

ودعنكم بالسلامة يا ضَوْ عيني
وخِلافكم ما غمض جفني على عيني
واعدتني بالوعد لمن حَفَت عيني
ظليت يا سيدي جسم بلَيَّا روح
جَذْ فرّ مني العقل وظل الجسم مطروح
كل العرب هوّدت وأنا شقي الروح
يا نور عيني مثل ما أراعيك راعيني

وعلى الرغم من قسوة الفراق وتخوف الأهل على البحارة ، فان الجو كان رائعاً مرحاً كأن الكويت في عيد . وبين ذلك الجمع الحاشد على رصيف الميناء وقفت نجمة وأمها وعمها مع بعض النسوة والأطفال ، يشيعون السفن بأبصارهم الشاخصة وقلوبهم الواجفة ودعواتهم الضارعة ، يداخل رجاءهم طيف من اليأس ، ويدفع قنوطهم بارق الأمل والاتكال على الله . وكانت تلك السفن تبتعد رويداً رويداً حتى بدت أشبه بطيور بيضاء في الأفق البعيد .



ونظرت نجمة الى عمها الحاج عمر وقد تجلت في وجهها امارات القلق العاصف والحزن العميق ، فوضع يده على كتفها مشجعاً وقال بعطف وحنان :

ـ الله كريم يا بنيّتي ... الله رحيم !

وعاد الجميع في الطريق المغبرة ومحمود الفتى لا يزال يلوح بمنديله وهو يردد في صوت عذب مقطعاً من أغاني البحر طالما سمع والده ينشده وهو متفيء بظل الجدار أو مستسلم لراحة القيلولة في يوم قائظ تحت سقف بيته الذي كان لتواضعه يلامس الأرض :

يا زارع المشموم فوق السطوحي
لا تزرعه يا شيت عذبت روحي
كل ما دخلت الدار هلّت دموعي
يا رايحين الغوص بروح وياكم
أقعد على الفنة واسمع حكاياكم

وتابعت تلك الجماعة الصغيرة سيرها صامتة حزينة ، وفي القلوب لوعة وفي النفوس مرارة ، ولم يقطع ذلك الوجوم الا كلمة الأمل والتسليم لمشيئة الله التي انفرجت عنها شفتا مريم أم نجمة ، التي كم وقفت تلك الوقفة على الشاطىء



ورجعت عنه ، حتى غدت تلك الوقفة جزءاً من حياتها الباسلة الصبورة ، لا تهزها النوائب بأرزائها ، ولا تستخفها الأفراح بمتعها ، حتى لكأنها ليست من أبناء هذا التراب الذي كم شهد من ملاحم وارتدّ عنه مغيرون وتخاذل مستكبرون .

وصمتت العجوز التي كان يبدو للجميع انها ان خطت خطوةً أخرى في أحشاء الزمن كانت من سكان السماء ، ثم هتفت مشجعة : ما لكن صامتات ساهمات يا صبايا ... ان ابناءنا يعيشون الآن أعراس الأمل ، وسيرجعون قريباً سالمين غانمين .

فانفجرت نجمة نائحة صائحة :

- ولكنه البحر يا أماه !

وكأن هذا النحيب كان على موعد مع الزفرات المكتومة في صدور النساء فاسترسلن في البكاء ، بيد ان مريم المؤمنة الصبور ذات الثأر القديم مع البحر الغضوب . والأسماك والحيتان . والشراع الممزق ، والدثر المتناثرة ، والسفين المفككة الألواح ، عرفت كيف تحبس تلك العاصفة وتدخل الطمأنينة الى القلوب الحزينة والنفوس الولهى ، بتلك الآية التي تلقى بها زوجها الراحل وفاة ابنه عبدالله :

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ! » .



هواجس نجمة

هاجر الفرح ، ورحل الربيع ، ولكن بقي في حنايا نجمة شعاعٌ من الفجر تطوي عليه الجوانح .

وأطلّ الهلال مبشراً بشهر جديد ، وهو الشهر الرابع بعد رحيل أحمد . وكانت قد وضعت وليدها في الشهر الثاني ، وظلت أمها الى جانبها بضعة أيام لمساعدتها في شؤون المنزل وتدريبها على العناية بالطفل ، ثم اضطرت للعودة الى بيتها للاضطلاع بمسؤولياتها فيه ، وبقيت نجمة مع طفلها وذكرياتها .

أغمضت نجمة عينيها وسافرت مع الذكريات . تذكرت طفولتها البائسة ووفاة أخيها ثم وفاة والدها حزناً عليه ، وانتقالها

مع أمها واخوتها الى كنف عمها يرعاهم ويعنى بهم . وتذكرت خطبتها لأحمد ، وكيف قَبِلَ عمها أن يزفها اليه على الرغم من المهر الهزيل الذي قدمه ، لأنه كان شاباً محبوباً في المدينة ، زاخر الحيوية والنشاط ، معروفاً بالشجاعة والاستقامة . وضحكت الأم الصغيرة وهي تستعرض فترة الخطوبة والزواج ، وتضمّ الى صدرها رأس الطفل الحبيب . كانت الخاطبة قد امتدحت أحمد وأثنت عليه ووصفته لها ولأمها بهذه الكلمات : « ما شاء الله ... مصليّ ومسمّي ... ولد كادود ، ووزاره ما ينشف ، وأخلاقه يا الله الجنة ، طول وعرض ، وعيونه عيون شاهين ، عاف ... كاف ... قصير اللسان ، كاف خيره وشره عن الناس ، من شغله الى بيته الى المسجد ، وما هو من هالمصبنة المبتلعين ، ولا هو خمّار ، ولا فاسد ولا قمّار ... » فقالت لها : « إذا كنت تصفينه بهذه الصفات ، فكيف وصفتيني له ؟ » فأجابت المرأة الطلقة اللسان : « قلت له انك طويلة ومضمرة ، ذات خصر نحيل ، وقوام كالخيزران ، وجهها مدور كالقمر ، وعيناها مثل الساعات ، وخشمها كحد السيف ، وحلقها لوقة زباد ، والشعر مسترسل أسود كالليل يصل الى الركبة » فقالت لها : « ولكن يا خالتي أنا وجهي ليس مدوراً ، وشعري لا يصل الى الركبة ، وهو ليس أسود فاحماً كما تقولين . وأنا لا أريد أن تكون عينيّ مثل الساعات ! » فأجابت الخاطبة : « أنا أعرف شغلي أكثر منك ! » .

ولما جاء الحاج عمر لخطبتها رحّب عمها به وقال له : « لو كانت ذبيحة ما عشتكم ، والحين أجبعها عباتها وأعطيكم إياها ، والبنت بنتكم ويا هلا ويا مرحبا ، وهذي الساعة المباركة » .

وبعد أيام جاءت أم أحمد وبعض النسوة ليلاً تتقدمهن الفوانيس وهن يحملن اليها « الدزة » وهي هدية صغيرة من الثياب والمناشف والبطانيات ، وهن يرددن : « ألف أصليّ وأسلّم عليك يا حبيب الله » والخاطبة ترافقهن ومعها المهر المتفق عليه ، فاستقبلتهن أمها بالزغاريد ، واشترت لها بهذا المهر صندوقاً للثياب وبعض الملابس وأدوات الزينة بالاضافة الى ما كان في



الدزة . وما هي إلا أيام حتى اجتمع أحمد وأبوه في المسجد مع عمها وتصافحوا وقام الإمام بعقد القران شفوياً من دون تسجيله على الورق ، وحدّد موعد الزواج في ليلة الجمعة المقبلة . وفي تلك الليلة نقلت نجمة الى منزل أحمد بعد أن زينتها والدتها وعطرتها وصففت شعرها وخضبت يديها وقدميها بالحناء ، وألبستها ثوباً حريرياً استعارته من الجيران كما استعارت عدداً من المجوهرات زينت بها جيدها ورأسها وزنديها ، والفتيات من رفيقاتها يغنين :

يا من باس العروس يا من باسها
يا من سَطر اللولو على رأسها

وبينما كان أحمد يستقبل المهنئين من الرجال الذين يرددون على مسمعيه : « مبروك ... ان شاء الله منك المال ومنها العيال » ، وأبوه يرش الضيوف بالبخور وماء الورد ، وكان بعض هؤلاء يرقصون

« الـدحة » و « العـرضة » و « الفريسني » في الساحة أمام باب المنزل ، كانت النسوة يجلسنها على كرسي ويغطينها بخمار كبير ملون ومطعم بالفضة ، ويرفعن هذا الخمار فوق رأسها ثم يخفضنه وهن ينشدن القصائد التي تتغنى بمحاسنها وآدابها ، ثم يحملن الكرسي وهـي عليـه وينزلنه لمـدة تتجاوز العشر دقائق وهـن يغنين :

هب السعد هبايب الأرياح
يا شاري العقال والصلاح
طيبة يجعل السعادة فالك
سلم أبوك وعزوتك ورجالك
طيبة ليمن وصلت الدار وسمي
قولي هلا يا مرحبا من جانا
يا مهرة عند الرجال ربوها
قطن جديد ما حواه ميزاني

ثم قامت النسوة بإدخالها الى غرفة العريس وهي محمولة على الكـرسي وهـن يزغردن وينشدن :

يا عريس عين الله ترعاك
والقمر والنجوم تمشي معاك
واحنا على عدانا تعلّينا
طابت خواطرنا وتهنينا

وهكذا بدأت حياتها الجديـدة مع أسرة زوجهـا . وكـان منزل الأسرة صغـيراً متصدعاً تدلف من سقوفه في الشتاء مياه الأمطار (الناقوط) ، ولكنهـم كانوا به سعداء ، وقد أضفى عليه حضورها أناقة ووداعـة كان يفتقر اليهما وأعـطاه متعـة وجمالاً ينقصانه . كان مؤلفاً من غرفتين وفناء صغـير مستطيـل ومطبـخ اسودّت جدرانه من أثر الدخان المتصاعد من الموقد الجاثم على الأرض ، وهو نصف دائرة من الحجارة توضع في وسطها الأخشاب ومـن فوقها القدر . ولما تزوج أحمد بنى غرفة من اللبن في ركن قصي من السطح طليت من الخارج بالجبس وليس في جدرانها نوافذ كي لا يطل منها أحد على نساء المنازل المجاورة . وكـان أحمد كلما صعـد الى السطح يصيـح بصوت عال : « درب ... درب ... درب » كي تختفي النساء في حجراتهن . وبعـد وفاة أم أحمد انتقلـت نجمة الى إحدى الغـرفتين الأرضيتين ، وتحولـت غرفة السطح الى مكـان لحفظ المؤونة والأسماك المجففة وميـاه الأمطار التي تجمع في صفائح معدنيـة وعـدد من

« الحِبْ » وهي أوان كبيرة من الفخار يبرّد فيها صيفاً الماء الذي يجلب من شط العرب ، كما وضعت فيها « شدّاخة » لصيد الفئران . وقد أغرق بناء هذه الغرفة وتأثيثها ونفقات العرس أحمد في الديون .

وكان أبو أحمد طويل القامة خفيف الحركة شاحب الوجه بارز عظام الوجنتين ، وفي وجهه قليل من آثار الجدري . وكانت حياته مسيرة شاقة تتحلى بالصبر والايمان . وكانت رحلات الغوص ورحلات السفر ، أكثر الأيام في حياته أثراً وأبعدها غوراً ، حتى طبعت نفسه بطابعها مدى ما عاشه بعدها من سنيه . ولم يكن بسيطاً ساذجاً كما يوحي بذلك مظهره الخارجي ، بل كان صعب المراس قوي الشكيمة وله معتقداته الخاصة ونظراته الشخصية الى الحياة . وقد أثمر كفاحه الطويل بناء هذا البيت ، وإداء فريضة الحج ، وشراء مركب صغير للصيد . وكان طيباً رحيماً لم يلقها مرة إلا وخاطبها بكلمة رقيقة . ولم تلقه إلا ليشرق وجهها نوراً . وقد قضى عند المطَوع ثلاث سنوات تعلم فيها القراءة والحساب . ودأب على قراءة القرآن الكريم قراءة المسلم المتبتّل . وكثيراً ما استيقظت نجمة في الهزيع الأخير من الليل على صوته وهو يتلو آيات الله بصوت ينفذ الى حنايا القلوب فيبعث فيها الخشوع والرهبة .

أما محمود فكان يرافق أباه في مركبه ويساعده في الصيد ، وكان يشعر في رفقته بسعادة لا توصف ، ومن خلاله أحبّ الكويت وشغف بقصص مراكبها وهي تمخر البحار ، وبأخبار مينائها الذي يربط ما بين الكويت والموانىء البعيدة ، فهو يتمتع بتلك المزية التي يتركها البحر في نفوس أولئك الذين ينتصرون عليه ، وفي جعبته حكايات مثيرة من كل بلد نزل فيه .

وكان الأب كلما ذهب الى الصيد عاد بقليل من السمك يأكلون بعضه ويبيعون بعضه . ولكنه فوجىء بعد ولادة نجمة بغشاوة رقيقة تنسدل على عينيه ، ثم ازدادت هذه الغشاوة كثافة وسواداً حتى لم يعد يرى الأشياء بوضوح ، فاضطر الى التوقف عن العمل وغدت حياته ليلا لا ينقضي تاركاً في قلبه أسف الصباح وغصة الأصيل . وصار يقضي أيامه على مقعد

خشبي أمام باب المنزل ، يصغي الى تكسر الأمواج على الشاطىء في مدّها وجزرها ، ويرسم على الرمال بعصاه خطوطاً غامضة متشابكة لعلها تمثل رحلاته البحرية الى البلاد البعيدة ، شأن الكثيرين من قدامى البحارة الذين يستعيدون ذكرياتهم على شاطىء البحر ، ويقصون حكايات مغامراتهم في ما سلف من الأيام ، ويتسقطون أخبار أبنائهم وأحبابهم الذين يعتلون عباب الماء .

وحين انقطع الحاج عمر عن العمل توقف عمل محمود وصار يملأ فراغه بزيارة الأسواق واللعب مع الأولاد لعبة « المقص » أو لعبة « أمها وأبوها » ، أو مرافقة نجمة الى الشاطىء لحراستها من العيون بينما تقوم بغسل الثياب مستخدمة الجص بدل الصابون ومستعينة « بالمضرابة » وهي قطعة غليظة من الخشب تضرب بها الملابس لتنظيفها .

أسدلت نجمة أهدابها على هواجسها ومسحت دمعة تدحرجت على خدها . لقد كان من عادة أهل الكويت الطواف بأهل المسافرين من جيرانهم يسألونهم عن مطالبهم وحاجاتهم لمساعدتهم ، فكانت تصر على انها بخير ولا تحتاج الى شيء . ومع ذلك فان حالة الأسرة كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم . وانها لتذكر بألم شديد ذلك المساء الذي وقفت فيه حائرة أمام عمها الحاج عمر وهي تقدم له الشاي ، وكان يفترش الأرض الى جانب صندوق الثياب ، وقد أمسك بالسبحة يدفع حباتها بأصابعه وضوء القنديل ينعكس على وجهه وقد انسدلت فوق جبينه خصلة من شعره الأبيض . لقد كانت خائفة مما تريد قوله ، ولكنها تشجعت وتمتمت انها تريد ان تبحث عن عمل في بيت أحد التجار ، فانتفض حين سمع هذه الكلمات وأضحى وجهه رمادياً باهتاً ، وأجابها بالرفض بصوت يشبه الأنين : « ولكن وضعنا سيىء جداً يا عمي ، ولم يبقَ لدينا حبة واحدة من الأرز والسكر ... ما رأيك في أن نبيع المركب ؟ » فشرب الشاي بلا سكر وقال بصوت متهدج امتزج فيه التأنيب بالطيبة : « يستحيل أن تعملي خادمة في بيت أحد ... والمركب لا



يباع حتى يأتي أحمد فيقرر مصيره » ثم نهض ففتح الصندوق وأخرج منه ساعة قديمة وأعطاها إياها قائلاً : « هذه ساعة المرحوم والدي وكان قد جاء بها من الهند في احدى سفراته الموفقة ، وهي ساعة ثمينة ، فاذهبي الى السوق وبيعيها غداً » فقالت : « لماذا لا تبيعها أنت ، فأنت تعرف كيف تتحدث وكيف تناقش وبالتالي كيف تقنع ... أما أنا فإني أجهل هذه الأمور وسوف يضحكون عليّ ويشترونها بأبخس ثمن !» فقال : « أعتقد بأنك على حق ، ولكن يستحيل أن أفعل ذلك بنفسي ... لعل عمّك يشتريها أو يبيعها لنا » . وكان محمود يصغي الى هذا الحديث صامتاً مطأطىء الرأس .

ولما أشرق النهار ارتدت نجمة عباءتها التي تغطيها كلها الا من فتحة العينين وهي مغطاة أيضاً بمنديل ، وسارت الى

منزل عمها وهي تتبين مواطىء قدميها بحذر في طريق متربة كثيرة الحفر، وبين منازل متشابهة في أزقة ضيقة يلوح عليها شيء من الحزن يبدو في أبواب المنازل كما يبدو في أعين النساء. ولم تكن قد اعتادت مغادرة بيتها إلا قليلاً لزيارة أمها أو بعض النساء من أقاربها حيث يتاح لها الاستماع الى الأحاديث التي تتناقلها النساء من حريم الى حريم عن أخبار الغوص والعاملين فيه.

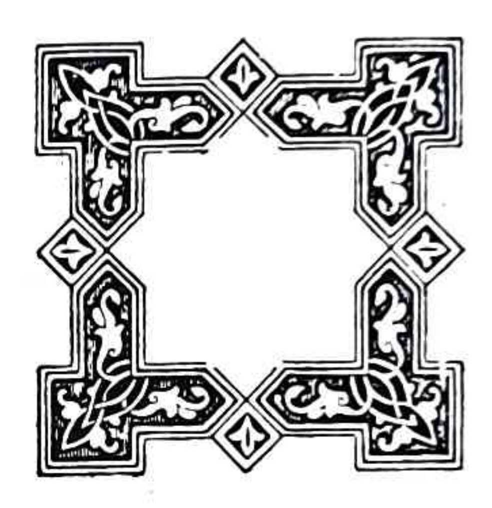
وعادت في الضحى وعيناها الحزينتان تتلفتان نحو البحر، ويدها تشد على خمس روبيات جاءها بها عمها ثمناً للساعة التي تساوي أضعاف هذا المبلغ. ولم تنس أن تشتري بعض اللحم والخضار وهي في طريقها الى المنزل. وسرعان ما أعدَّت للحاج عمر ومحمود غداءً شهياً. ولكن محموداً لم يأت الى المنزل ظهراً، وبدأ القلق يخالجها عندما غابت الشمس دون أن يعود الفتى، إلا أنه لم يلبث حتى فتح الباب ودخل منتصب القامة شامخ الرأس وهو يحمل قليلاً من الأرز والسكر.

وأفضى محمود لأبيه بسره، فقد ذهب منذ الصباح الباكر الى السيف وعرض نفسه للعمل في احدى ورشات صنع السفن وتصليحها (النقع) وقد قبل طلبه فوراً وغدا ساعياً بين تلك الورشة وبين (العمائر) حيث تباع أدوات السفن ولوازمها كالحبال والمسامير والأخشاب. وهكذا أضحى ابن الثانية عشرة ينهض بجزء من عبء المنزل ومؤونته، ويتعلم الصناعة التي يميل اليها. وكانت صناعة السفن تشمل سفن الغوص وسفن النقل وسفن التجارة وسفن الصيد، ولكل منها أنواع مختلفة وأسماء خاصة. وقد أبدى الفتى كفاية أرضت معلمه وأعجبه منه ذلك التفاني العجيب في عمله وتلك القدرة على الاضطلاع بكل ما يطلب منه. والواقع ان محموداً كان سعيداً بقضاء النهار في الميناء حيث تزدحم السفن الشراعية الكبرى والصغرى في صفوف طويلة وراء الحواجز المشيدة بالصخور المرجانية، فيشاهد سفناً جديدة تنزل الى البحر، وسفناً معطلة لن تبحر أبداً، وسفناً يجري إصلاحها وإعدادها للسفر من جديد، وصناع السفن المهرة ومساعدوهم الكثيرون لا

تهدأ لهم حركة ولا يخمد نشاط ، وهو يتعلم كل يوم شيئاً جديداً ، فمرة يساعد في خياطة شراع ، ومرة يطلي خزانات الماء الخشبية بزيت السمك ، ويذهب يوماً الى العمائر لاحضار بعض الأدوات ، ويقتصر عمله في يوم آخر على تقديم المطارق والمسامير للعمال الذين يركّبون ألواح السفينة ، حتى ألف تلك الضجة التي تختلط فيها قرقعة الحديد وطقطقة الرافعات وضرب المسامير بالمطارق مع الأغاني والأهازيج التي تتصاعد من الحناجر القوية ، وغدت تلك الضجة المحببة جزءاً من حياته وعنصراً من عناصر شخصيته ، كما يبعث منظر الأشرعة البيضاء في نفسه إحساساً بالحرية والانطلاق نحو المغامرة .

وكان الظلام يتكاثف فوق مدينة الكويت ، وقد نام كل شيء إلا بعض المراكب الصغيرة المنتشرة حول الميناء والتي تشع منها أنوار خافتة ، وساد الصمت العميق كأن الليل يستمع الى دقات قلب الطبيعة ، وعمل السكون الشامل على تهدئة النفوس القلقة والقلوب المضطربة فما لبثت الذكريات حتى رقدت واستيقظت الأحلام في أهداب نجمة المرتعشة .





زمن الكفاح

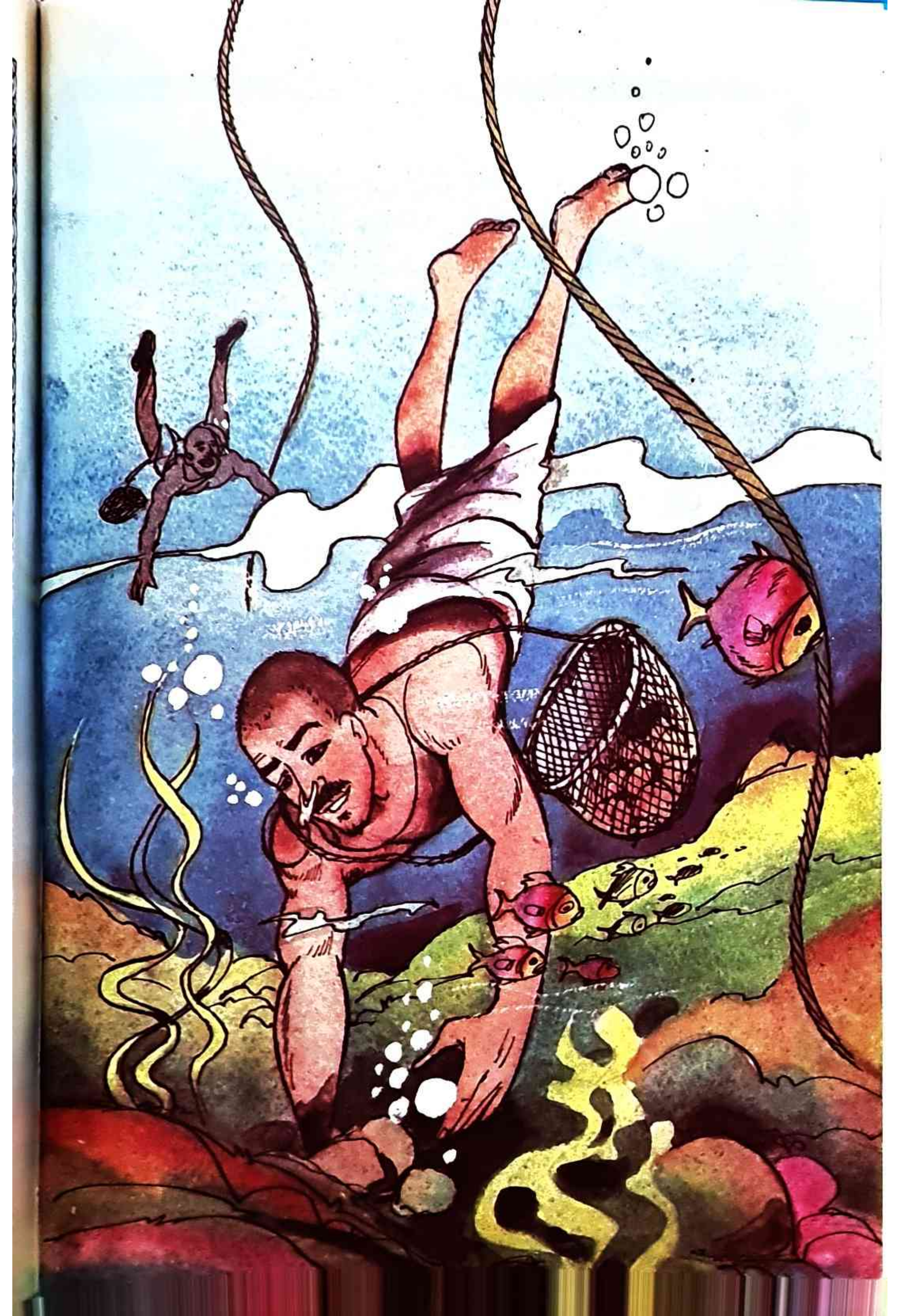
هبطت شمس الغروب فاترة برتقالية وراء الأفق الأرجواني ، وهبّ نسيم رقيق يمسح حبات العـرق عن الـوجوه السمراء والأجساد النحاسية ، وأخذ الليل يحتضن السفينة ، وتألق قمر الصيف في السماء ، وازدادت زرقة البحر خضرة وهدوءاً . كان العالـم يبـدو لأحمـد شاسعـاً في الليل ، ولاسيما حين تتوهج الآفاق وتدنو النجوم من الأرض مالئة الجو ببريقها . وكان يفكر في نجمته وفي ساعة الوداع التي لم يقولا فيها كلمة واحدة من الاف الكلمات التي كانت تتدافع في نفسيهما .

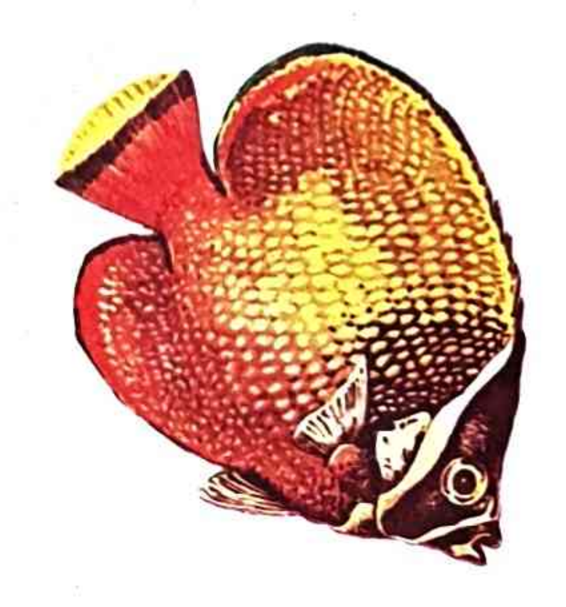
لقد كان يرقد كل ليلة أشبه بالقتيل ، لا يشعر بما يجري من حوله. ولا يستيقظ حتى

الفجر ، لكثرة ما يعاني في نهاره من أشقى مهنة في العالم . كان الارهاق يستنفد كلَّ قواه ثم يجدّدها النوم بصعوبة . ولم يكن ليهتم بآلامه ، فان الكفاح والتعب كانا يستغرقان كلَّ يومه ، ولا يدعان له وقتاً للتفكير في شيء آخر . وعندما شعر ذات يوم بانحراف في صحته لم يسمح لنفسه بالتوقف عن العمل ، لئلا يُتّهم بالتهاون والكسل . فقد كان يعاند ويقاوم وينتصر ، وكان البحر يجذبه على الرغم من مفاجآته ومخاطره . وكانت ثقته بنفسه تتغلب دائماً على ضعفه وتحثه على العمل والمثابرة . والبحر الذي لا يكلّ ولا يهُزم وجد فيه ـ كما وجد في زملائه ـ مصارعاً يضارعه في العناد والصرامة ، فغدا صديقه وأليفه وبات طوع يديه ، في تكاتف عجيب بين قوى الانسان وقوى الطبيعة .

وكان أحمد رائع الجسم مفتول العضل ماهراً في حرفته فكان يقوم بخمسين أو ستين غطسة في اليوم الواحد ، وكانت الغطسة تستغرق دقيقة واحدة يستريح بعدها دقيقتين ثم يعاود الغوص حتى تبلغ غطساته عشراً فيخرج الى سطح السفينة للراحة قليلاً ويبادر الى تنشيف جسمه من الماء واستبدال سرواله المبلول بآخر ، ثم يهرع ليتدفأ أمام موقد النار (السريدان) الذي لا ينطفىء لهيبه . وقد يبدو غريباً هذا الاصطلاء بنار الموقد والمناخ أشبه ما يكون بالتنّور والشمس ترسل من أشعتها شواظاً من لهب ، ولكن الماء في أعماق البحر على عمق ستين أو سبعين قدماً شديد البرودة يجمّد أطراف الغواص فيرتعش برداً ، فكان لا بد له من التدفئة لتحمّل الغوص المتواصل طول النهار . وكان يتناول وجبة واحدة في المساء من الأرز والسمك ، أما في النهار فيقتصر ما يتناوله على الماء والتمر . وكان المحارُ يترك في الأكياس ليلة كي يموت ويسهل فتح الصدف ، ومع مطلع الشمس كل صباح يقوم البحّارة بفتح المحار الذي تجمّع في اليوم الماضي وإخراج ما قد يكون فيه من لآلىء ، فيجمعها النوخذة ويضعها في قطعة من القطيفة الحمراء ويودعها في صندوقه الخاص على ظهر السفينة .

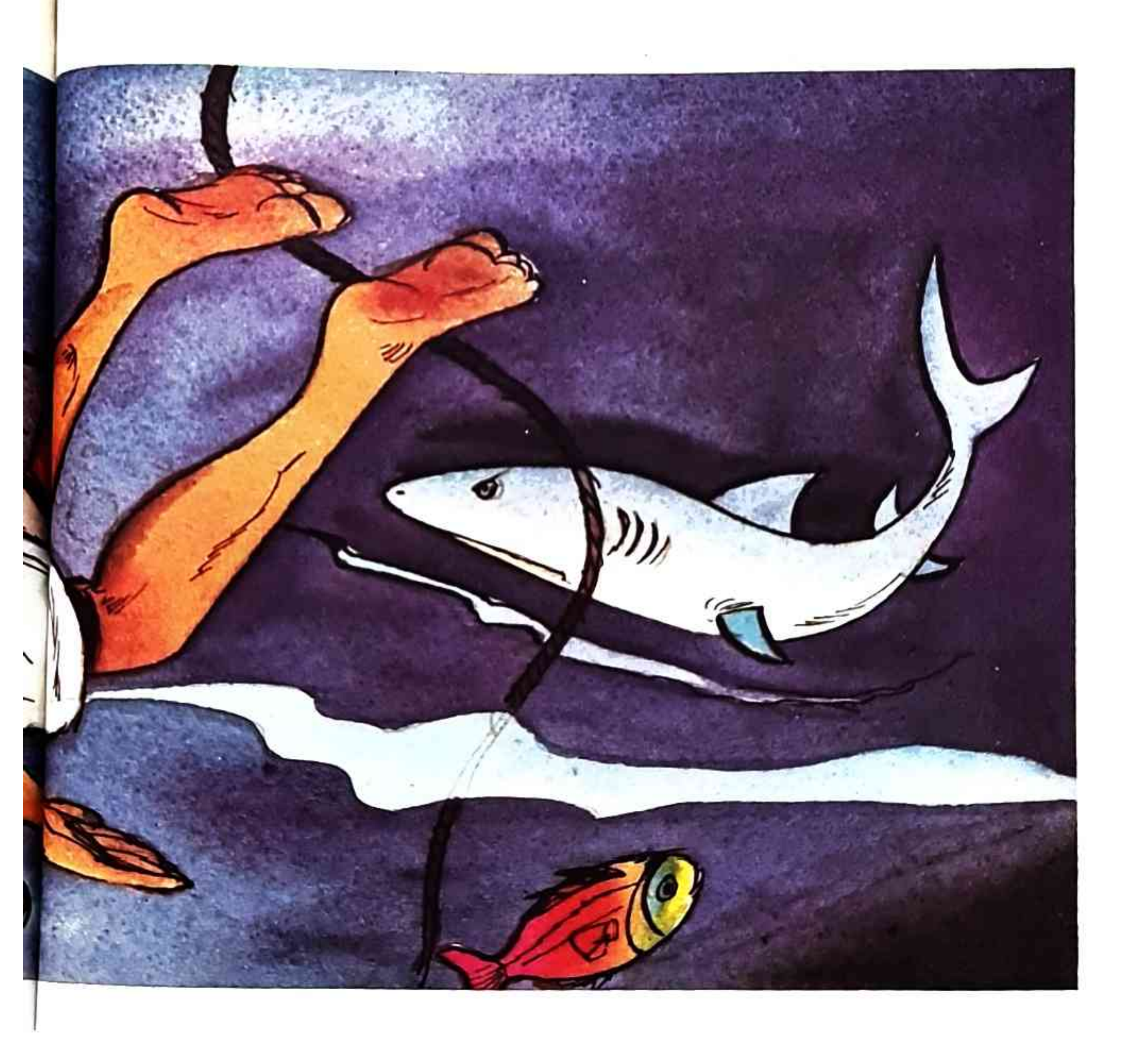
وما أكثر الأهوال التي كان يتعرض لها الغوّاصون الذين تسوء صحتهم من هذا





الاختلاف المتواصل بين البرد الشديد في قاع البحر والحر اللاهب أمام موقد النار، ومن مقاومة التيار الذي يتعرض له الغوّاص تحت الماء . ومن سوء التغذية ورداءة الماء وتراكم الأوساخ والجراثيم والحشرات . واذا اشتد الهواء أو كانت السفينة تعترض الموج رفعت السفينة المتمايلة الغوّاص أثناء سحبه فتأرجح في الهواء صعوداً وهبوطاً . وقد يتعب الغوّاص فيصطدم بأسفل السفينة ويصاب بالجراح ، أو يتعب السيب في جره فيبطىء في عمله ويعاني الغوّاص ألماً في صدره وقد ينزف الدم منه . وقد تنفجر طبلة الأذن وتدمى بسبب الضغط القوي . وقد يشتبك حبل غوّاص بحبل غوّاص آخر فلا يتم إخراجها إلا بعد جهد كبير . وقد تصطدم سفينة بأخرى وتتكسر بعض أجزائها فيعاني الغوّاصون من جراء ذلك مخاطرة كبيرة .

وقد تصاب جلود الغوّاصين بقروح كقروح الجدري ، ويضعف بصرهم من التحديق في الماء المالح ، وهناك أمراض كثيرة لا يتعرض لها إلا الغوّاصون تعالج بوسائل بدائية ، فضلاً عن الأخطار التي يتعرضون لها من قبل الأسماك المؤذية ، وهناك عدد من البحّارة الذين فتك بهم الجرجور أو مزّق اعضاءهم ومنهم احمد حمد البرجس ، وكان هذا الشاب يغوص مع آخرين على مقربة من بلدة الجبيل بالاحساء من سفينة لخاله محمد البرجس . فرأى بحارة السفينة جرجوراً فظنوه هاموراً (سمكة كبيرة) فألقوا اليه بشص لاصطياده . فعلق الشص به وأخذوا

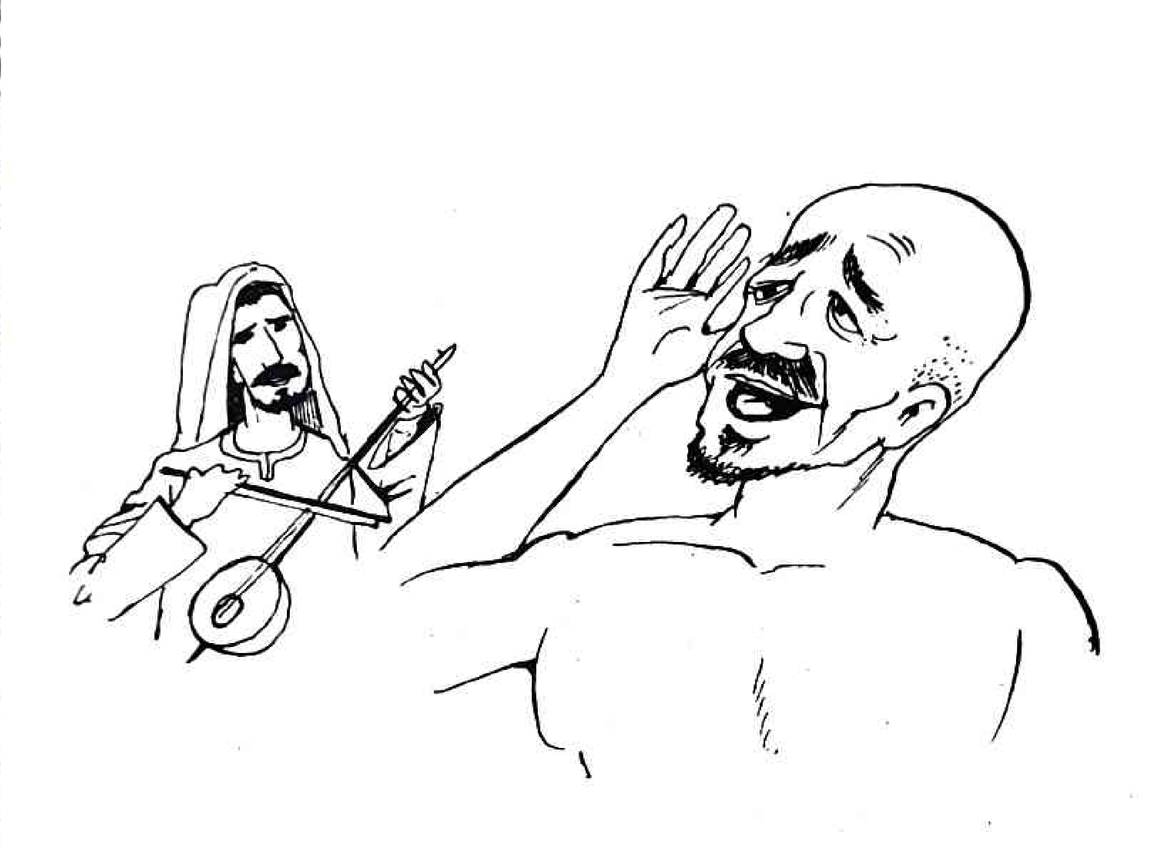


يجرونه ، فمر بجانب أحمد فأطبق شدقه عليه . فلما شاهد البحّارة هذا المشهد علموا انه جرجور وندموا على فعلتهم وحاروا في أمرهم ، اذ كلما جروا الجرجور الى السفينة كان الحيوان المفترس يشدّد من إطباق فكيه على أحمد ، ثم رأوا ان يجروا الاثنين الى السفينة معاً ، وجعلوا يستعدون للفتك به فما كاد يصل الى السطح حتى



انتضوا عليه بسكاكينهم فقتلوه وأنقذوا احمد من شدقه ، وبادروا لارساله الى الكويت في سفينة ثانية لمعالجته ولكنه ما لبث حتى توفي بعد أيام قليلة . وظلت الذيبة وهي أنثى الجرجور وأشد فتكاً منه ، تلاحق السفينة عدة أيام بحثاً عنه .

وفي المساء كانت تبدأ جلسات الونسة والسمر ، وشرب القهوة والشاي ، وتبادل



مواويـل الزهـيري التي تعبر عن اللوعـة والحنين ، وأحد البحّارة يعزف على العـود ويــرافقه آخرون بالنقر على طبلات صغيرة ، بينما يغني أحدهم :

لو لي جناحين كنت أفرح وأطير أو حدي
وأزور من طاف فوق البساط أو حدي
وارابعك دوم وأسكن بالديار أو حدي
انصى المدينة وأزور رياضها زهرة
وهناك أواجه حبيبي بموقف الزهرة
يطيب نومي هني وعيشتي زهرة
أقلط على القوم بسيف وماضيات أو حدي

ويجيبه ثانٍ :

ما ألوم نفسي وأعالج قصتي بالماي
وغذاي حنظل ومشربي صبر بالماي
والعزم فاتر وأعرُض طار شي بالماي
ايش أداري من الأنذال ايش النقص
احنا على الدر ببحور الأماني نقص
نسعى على الماي وحتى في غذانا نقص
وشبصرتك لي دهتنا غصة بالماي

ويرد عليه ثالث ورابع ..

وتدب الحماسة في أعطافهـــم فينهضون لرقص « العرضة البحرية » و« يا مال » و

« المجيلسي » التي تمثل روح البحّارة ومجتمعهم وما يخالجهم من آلام وآمال ، دون أن يشاركهم الغوّاصون الذين يدّخرون قوتهم لعمل الغد . وقد يشعرون بالتعب دون أن يدركهم النعاس فيلتف بعضهم حول بعض يروون السوالف ، او يستمعون الى احدهم وهو يقص عليهم احدى حكايات البر او البحر ، ويبدأ الحكاية بقوله : « صلّوا على النبيّ » .

إلا ان الحكايات التي كانت تطيب للبحّارة لما تثيره في نفوسهم من الأحلام والأماني ، هي الحكايات التي تدور حول الدانة التي يطمعون في الحصول عليها فينتقلون من الفقر الى الغنى ومن الشقاء الى الثراء ، وهم يروون أن صياداً يدعى عمر بن ياقوت استخرج مرة بعض المحار لا بحثاً عن اللؤلؤ بل لوضعه بعد فتحه في القرقور لصيد السمك ، ولما فتحه وجد في احداه لؤلؤة فريدة باعها بمائة وعشرين ألف روبية ، وقد اشتهرت هذه الدانة او الحصباة فقال الشاعر منصور الرشيدي :

أنا كل ما عملجت بالنوم يا لأجواد
سرى القلب مني لراعي الكوت
أنا لو عذلت القلب يا بو فهد يزداد
على الجادل اللي تقل حصباة ابن ياقوت

وكان ثمة غوّاص يدعى علي الدوب خرج الى الغوص في مركب صغير ومعه أربعة رجال ، وقد موّلهم السيد عبد العزيز الرفاعي ، فظلوا يبحثون عن المحار طوال اربعين يوماً فعثروا على كثير منه ولكنهم لم يجدوا فيه شيئاً من اللؤلؤ ، فرجعوا من مغامرتهم حائرين اذ كان عليهم وفاء السيد الرفاعي دينه ، إلا ان مركبهم توقف لسكون الهواء في موضع يقال له « ام الهيان » على مقربة من قرية الشعيبة ، فنزلوا يبحثون عن المحار للتسلية ، فالتقطوا سبع محارات إلا انهم لم يأبهوا لها بعد ان فتحوا المئات منها دون جدوى ، فأخذها علي الدوب الى منزله ولما فتحها وجد فيها دانة ثمينة ، وعلم الحاكم بأمرها فاشتراها بعشرين الف روبية .

وكان الشاعر فالح الحبيني العازمي صياداً فقيراً وله ابن اخت رباه كولده ، وأراد يوماً ان يزوّجه ولم يكن يملك المال

اللازم لذلك ، فحاول ان يستدين بعض المال من جار له فرفض اعطاءه ما يطلب ، فمضى كئيباً حزيناً وذهب الى الصيد فوجد محارة فكاد يلقي بها ، ثم فتحها فوجد فيها لؤلؤة ثمينة باعها بمبلغ وافر من المال ، وبادر لفوره فاشترى لوازم العرس وعاد بها الى المنزل ، فلما رآه جاره دهش لذلك وسأله عن مصدر المال ، فأجابه بالآية الكريمة : « ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

إلا أن الحكاية التي أضحكتهم كثيراً حكاية محمد بن عصفور أحد كبار تجار اللؤلؤ ، وكان يفحص ما معه من اللآلىء مرة على بساط في غرفته بالسفينة ، فوضع اللآلىء الجيدة الى جانب ، واللآلىء الرديئة الى جانب آخر ، ثم غادر الغرفة لبعض شأنه بعد ان طلب من خادمه تنظيف الغرفة ، فلم يكن من الخادم إلا أن طوى البساط ونفضه في البحر ثم عاد فبسطه على أرض الغرفة من جديد ، فلما عاد ابن عصفور ولم يجد اللآلىء سأل الخادم عنها فأجاب بأنه لم يكن يدري أن ثمة لآلىء على البساط وقد نفضه في البحر ، فطلب منه ان يكتم الأمر ليقينه بأنه اذا شاع الأمر وعرف الناس أنه فقد ثروته تحرّجوا من التعامل معه ، وتابع سفره الى الهند حيث اشترى من التجار الكويتيين كمية من اللآلىء دون ان يدفع ثمنها . ومن عجائب المصادفة ان اللؤلؤ ما لبث حتى ارتفعت قيمته ، فحقق بما اشتراه ربحاً كبيراً ، وبادر الى التجار فسدد لهم ثمن لآلئهم وأخبرهم بما حدث له ، ولما سألوه لماذا لم يخبرهم بذلك قبلاً ، أجاب : « لو عرفتم ما حلّ بي لرفضتم ان تبيعوني ما اشتريت دون ان تقبضوا الثمن ! » .

ويؤمن البحّارة ببعض الخرافات التي تملؤهم رعباً ، ومنها وجود شيطان يدعى بودريا يجوب البحر بشكل انسان ويسمع صياحه كأنه غريق ، فاذا ما اقترب احد لانقاذه جره الى قاع البحر وأغرقه فيه . ويبدو ان بعض الغوّاصين يخيفهم قاع البحر وما فيه من أودية وكثبان وصخور وغابات ، وأسماك مختلفة الأشكال والألوان ، فيصابون بالجنون ويصعدون الى سطح الماء وهم يصرخون كالحيوان ، فيقال انهم اصيبوا بالضرّ او الضرورة ،

أي بمسّ من الجن ، ويعالجونهم بتلاوة آيات من القرآن الكريـــم لاخراج الجني من أجسامهم . وحدث ذات مرة ان نزل احد الغـوّاصين الى المـــاء وما لبث حتى عاد مذعوراً وقال انه شاهد جنّية ترتدي عباءة سوداء في قاع البحر ، فنزل ثانٍ ليحقق في الأمر ثم عاد ليؤكد ما قاله الأول . وتوقف الغوّاصون يتهيبون النزول ، فتطوع أحمد لاكتشاف الحقيقة ، واذا به يشاهد الجنّية بعباءتها السوداء ، وكبر عليه الهرب وهـو المعـروف بين زملائه بالجرأة والشجاعـة ، فدنا منها ووضع يده على كتفها وسرعان ما تبينّ له ان هناك صخرة عموديـــة قد التصقت بها عباءة وقعـت ولا ريـب من احدى السفـن ، فأخذ العباءة وارتداهـــا لمداعبة زملائه ، وصعد الى سطح الماء ، فما كادوا يرونه حتى ذعروا وظنوا ان الجنّيـة فتكت به وجاءت لتفتك بهم ، ولم يهدأوا او يطمئنوا حتى ناداهـــم باسمائهـــم وتحدث اليهم .

وكـان صوت مؤذن السفينة يتعـــالى مع. الفجر شجياً يملأ النفوس خشوعاً ، فيهبّ الجميع لاداء الصلاة مؤتّمين بالنوخذة مصطفى . وفي ذات يوم حان موعد الصلاة ولكـن العـــم مصطفى لم يستيقظ خلافاً لعادته ، وكانوا قد لاحظوا في الليلة الماضية انه يشكو صداعاً مصحوبـاً بدوخـة وتقيؤ فتركـوه نائماً وقرروا الشروع في عملهـم دون إقامة الصلاة . وكان ذلك النهار يوم راحة احمد ، فان من حق الغـوّاص ان يرتاح يوماً واحداً كلَّ عشرة أيام ، فحذر زملاءه من النزول الى البحر قبـــل إداء الصلاة ، ولكنهم لم يصغوا اليـه واقبلـوا على العمـــل بنشاط . وسرعـــان ما قام السيوب الى حبالهم وانطلق التبابة يحملون ألواح الحجارة ، وبدأت أجساد الغوّاصين النحاسية تلتمـع تحت أشعـة الشمس ثم غابوا في الأعماق ، واخذوا يلتقطون المحار بأيـديهم الماهـرة وقلـوبهم مفعمة بالآمال العريضة والأحلام الحلوة ، هذا يحسب ان يديه فاضتا بالأموال ، وذاك تطوف بمخيلته صور أولاده وقد نعموا بالثياب والألعاب ، وذلك لا يرجو إلا ان يلتقي تاجر الحي فيؤديـه حسابه السنوي ليعـود بعـد ذلك فيرى كيف تتراكـــم من جديـــد فاتورة الحساب ، وآخر يطوي صدره على سر

يأبى ان يكشف عنه إلا على كيس النقود المفعم يطرحه في حضن عمه الـطواشي الذي يحرص على ابنته حرصه على حبات اللؤلؤ الثمينة التي يحملها الى الهند .

واهتـزت الحبـال في الاعماق . فأنشـأ السيوب المرهفـو الأعصـاب يستعجلـو ن بجذبهـا . وسرعـان ما بدأت الـرؤوس الشمطاء تطفو على سطح الماء وبمحـاذاة كل رأس سلة من المحار . وكانت السماء ترسل لافح شواظها . والبحر يتنهد تنهداً عميقاً بارتفـاع الموج وانخفاضـه . وتلك الاجسام المعروقة المقرورة لا تستقـر على سطـح المركب الا ريثما تفـرغ السـلال وتعادل من وضع العظـام على الأنـوف . لتعاود الانزلاق تحت الماء بخفة السمك في البحر وانقضاض الطير في الجو . لتلامس قاع اليم تحرث مواطن كنوزه حرثاً وتعزق حقوله عزقاً . وما من آلة لها أو عدة غير تلك الاصابع النشيطة الخبيرة كأنما فيهـا ومضة من ومضات الفـكر المضيء بأشعـة الذكاء .

وعندمـا بلـغ عدد الغوصـات عشراً . وتحلّقت تلك الاجسام التي اضناها التعب وأجهدها البرد حول المدفأة التي تتراقص السنتها لافحـة محرقـة . افـاق النوخـذة مصطفى . ولاحظ تلك الحـركة النشطة . فاعتذر عن تأخره في النوم وسـأل عمـن أمّهم في الصلاة . فاجابوا بانهم لم يُصلّوا ذلك اليوم . فغضـب غضبـاً شديداً . وضرب برجله كومة المحار وقـال : « لا تخلطوا هذا المحار مع غيره ... انه كسحب حرام ! » .

ودفـع الفضول بحاراً عجوزاً قضى أول شبابه غواصاً وانتهـى بعـد ان هزل منه الجسم وخارت قواه لأن ينقلب سيباً . الى البحث في هذا المحار الذي يرفضه النوخذة قبل اتلافه . واذا بلؤلؤة ثمينة ترتفع في يده فيقف فرحاً وهو يعرضها قائلاً :

« وما تدري نفس ماذا تكسب غداً » .

ووقف عند هذا الحد من الآية الكريمة . حين شاهد النوخذة مصطفى يدنو منه وقد امتقع وجهه فيأخذ اللؤلؤة ويلقيها في البحر وهو يكمل الآية :

« وما تدري نفس بأيّ أرض تموت ! » .

ثمَ أشاح بأنظاره عنهم لئلا تلتقي عيناه

بعيونهم وقال : « لا تغضبوا أيها الأخوان ، فهذا كسبٌ حرام لم يباركه الله لأننا لم نبدأ عملنا فيه بالصلاة.. وهي ليست فريدة بل حصباة عادية قد لا يزيد ثمنها على مائة اومائتي روبية في أكثر تقديرا! » .

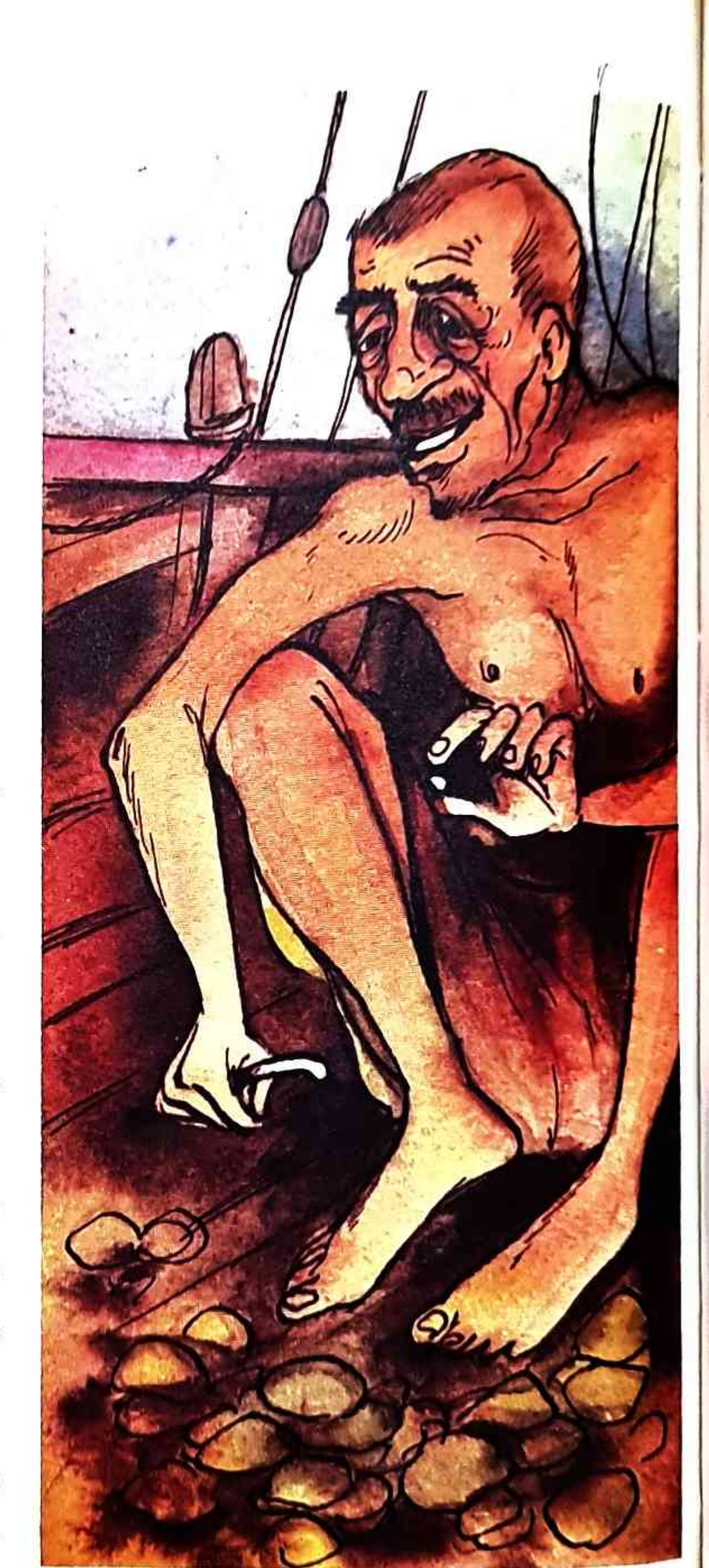
وقام البحّارة الى الصلاة ، ثم عاد الغوّاصون الى الماء وقد أشرق الإيمان في نفوسهم وجدَّد من عزائمهم ..

ومرّ بالسفينة بعد قليل هامور كبير ، فنظر اليه النوخذة وقال لأحمد الذي ينعم بيوم راحته :

« عليك به يا أحمد .. وهيّىء لنا منه وجبة شهية ! » .

فأمسك أحمد بسكين حادة وألقى بنفسه في البحر وشرع يطارد الهامور حتى قضى عليه ، فجرّه وصعد به الى السفينة ، وعكف على شقّ أحشائه لتنظيفه وإعداده ، واذا به يهتف : « لقد وجدتها .. وجدتها .. » .

وتحلّق حوله البحّارة ، واذا بهم يرون في يده تلك اللؤلؤة نفسها وقد أخرجها من جوف السمكة .. فعقدت الدهشة ألسنتهم



لا يدرون ما يقولون .. وقال أحمد وهو يقلّب اللؤلؤة في كفه فرحاً بها : « لقد شاء الله ان يرد اليكم لؤلؤتكم الثمينة ، وهي الآن كسب حلال ! » .

وتهامس النوخذة مع البحّارة ثم قال : « انها لؤلؤتك يا أحمد وثمرة جهدك .. ونحن لا نريد من قيمتها شيئاً ! » .

لقد كان البحّارة ينامون على ظهر السفينة ملء عيونهم وقد التصق بعضهم ببعض ، في ألفة وأخوة أوثق من قرابة اللحم والدم ، وكان أحمد يرقد كل ليلة أشبه بالقتيل ، ولكن النوم لم يجد في هذه الليلة سبيلاً لناظريه ، وهو يغلق أجفانه موهماً نفسه بالرقاد لكنها تأبى عليه إلا التحديق في نجوم السماء ، فيغلبه السهاد مؤرقاً لا يستقر على جنب إلا لينقلب الى آخر ، يستيقظ مرة على صوت سعال ومرة على لهثة كلال ومرة أخرى على صوت الموج وهو يرتطم بجدران السفينة ، حتى أخذت ملامح الفجر تبين ، واختفت نجمة الصباح في الأفق البعيد ، وخبا الضوء في القناديل الصغيرة المعلقة على جوانب



الصواري فبدت في ضباب البحر أشبه بالعيون الناعسة ، وحوّم فوق السفينة سرب من طير النورس صديق الشمس والبحر والسفر ، فاستيقظ أحمد من غفوته المتقطعة وأخذ ينظر بسرور الى الطيور المرفرفة المحوّمة وهي تزقزق وتغرد كأنها تناديه وكأن قلبه يحييها ويناجيها بصمت :

ـ أيتها الطيور الآتية من ميناء الكويت حيث ترسو أشرعة الشوق وتبحر في عينيّ نجمة .. أيتها الطيور التي تحمل عبير التراب وعطر الأحباب ، ليس الآن زمن الحب ولكنه زمن الكفاح !



أضاءت الدنيا لآلىء

بدأت الطيور تعود في هجرتها الجنوبية ، وانتقــل فرحهــا الى البحر والصحراء والمـدينة ، وكـانت نجمة تروح وتجيء في أرجاء المنزل الصغير متوترة قلقة ، وداعبها الحاج عمر بقولـه : « عقلك راح فين يا نجمة ، الطعام بدون ملح ... » ولم يتجاوز أبو أحمد الحقيقة ، فقد كانت الأم الصبية تقوم بعملها المنزلي في حركات تنمّ على انها أبعد ما تكون بعقلها عما تفعله يداها ... لقد كان عقلهـا بعيـداً عن الكويــت ، يطوف في أرجاء البحر ويرسم لها أحلاماً ملونة .

كانت قد انقضت أيام على دخول الشهر الخامس بعد رحيل قافلة الغوص ، وبات



عليها أن تقفل عائدة الى الكويت في تلك الرحلة السعيدة التي تسمى « القفال » ، وقد ضجّت النساء وخرجن الى الشاطىء يعبرن عن غضبهن على البحر الذي أخّر عودة أقربائهن وأحبائهن ، وحملت إحداهن قضيباً محمّى من الحديد وأخذت « تطق » البحر به ليشعر بالألم الذي يخالجهن ، وجاءت أخرى بقطة وجعلت تغطسها في البحر مرات عدة بغية « تنجيسه » لأنه السبب في غياب الأحباب . وكن يخاطبن البحر بالتهديد مرة وبالرجاء مرة أخرى ، ويذكّرنه

بانقضاء الشهر الرابع مرددات :

توب ... توب ... يا بحر
ما تخاف من الله يا بحر
أربعة والخامس دخل
ما تخاف من الله يا بحر !

ثم يعددن أسماء أحبائهن كل واحدة منهن في بيت بينما تردد المجموعة تلك اللازمة . أما الأطفال فكانوا يمسكون بحيوان بحري صغير يسمونه « عنبزة » ويخاطبونه : « يا عنبرة يا بمبرة ، ويـن الغوايص ، ويص ويص » ...

والواقع ان سفن الغوص كانت قد قفلت عائدة الى وطنها يسبقها اليه الشوق ويهدهدها الأمل العميق ، وجاءت البشرى تؤكد بأن يوم القفال هو يوم الجمعة ، وكان الطقس في هذا النهار جميلاً والبحر هادئاً والسعادة تتألق على الوجوه كأن الدنيا أضاءت لآليء ، وقد تجمّع الناس منذ الصباح الباكر عند الرصيف ، أما الذين حال المرض أو تقدم السن دون ذهابهم إليه فقد وقفوا أمام أبواب منازلهم يتحدث بعضهم الى بعض ويشيرون الى البحر بأيديهم .

كانت الكويت في عيد ، فتألق البشر والحبور على الوجوه ، وازدانت أسطحة المنازل بالرايات وعلامات الزينة ، وقرعت الطبول والدفوف على الشاطىء ، وارتفعت أصوات المغنين والأهازيج ، وانعقدت حلقات الرقص فتماسكت الأيدي وتمايلت الخصور وتحركت الأقدام بأشكال تتناغم مع الألحان ، وتشابك الراقصون مرفقاً الى مرفق كأكليل مضفور .

وتحمست بعض الفتيات فوقفن في مكان منعزل وأخذن يغنين :

يا خوي ما أحلى السفن اذا لزت السيف
كلها إصبيان تجرّ المجاديف
يا نوخذاهم لا تصلب عليهم
ترى حبال الغوص قصص أيديهم
يا ليتني أدهينة وأدهن أديهم
يا ليتني خيمة وأظلل عليهم
يا المحرمة اللي على الراس طيري
طيري على أخيي فوق السريري
يا المحرمة منتي أبحلوة على اللاش
حلوة على أخيي أبو محزم اقماش

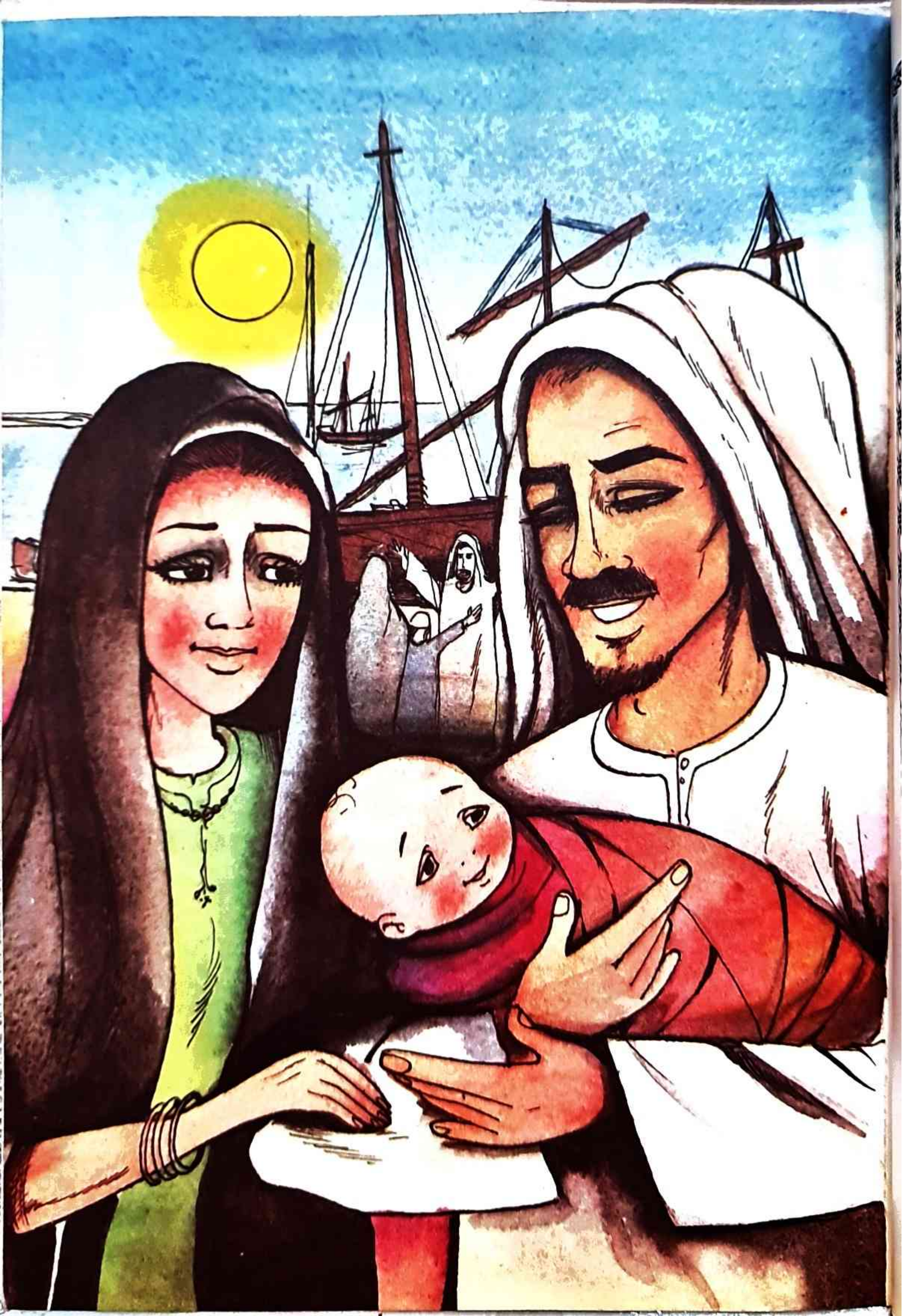
وسرعان ما بدت سفن الغوص تحت قلاعها المنشورة كأنها أجنحة النسور واعلامها الحمراء ترفرف في مقدماتها ، وقد وقف البحارة على جوانبها يقرعون الطبول

وينشدون ويغنون . ولما وصلت الى الميناء كان الغواصون أول من هبط منها الى الشاطىء اذ كان على الآخرين القيام ببعض الأعمال قبل نزولهم كتنظيف السفن وسحبها الى الأمكنة المخصصة لها بعيداً عن المد والجزر ، ونقل الأشرعة والصواري وخزانات المياه الى الشاطىء . وكان الغواصون حليقي الرؤوس وحاسريها ، وقد أحالت الشمس سمرتهم الى سواد ، وبدوا ضامري البطون دقيقي السيقان ، وقد احمرّت عيونهم وحفرت التجاعيد وجوههم وكست أيديهم وأرجلهم الندوب .

وأقبل أحمد الى حيث وقف أبوه وأخوه وزوجته ، فارعاً مهيباً في خطوه اعتداد وفي وجهه ابتسامة . وكانت نجمة تحمل طفلها على يديها وقد تجسمت فيها كل معاني الجمال والرقة والوداعة ، فكان اللقاء حاراً تفجّرت فيه العاطفة وتعانق القلبان . ولم تجد الأم الصغيرة ما تقوله أفضل من أن تضع طفله بين يديه . فانبسط وجهه ورضيت نفسه وأطلّ الحنان من عينيه ، فقد أكرمه الله بولد وأعاده الى أهله بسلام . وأخذ الطفل الى صدره وأنشأ يمرّر لحيته على وجهه ، فيضحك الطفل ويرفس برجليه ويضرب بيديه غبطة وسروراً . وتعاظم فرح أحمد ومضى يعبر عن عواطفه في سذاجة الأطفال ... كان فمه يمتلىء بالكلمات ولكنه يحتار في اختيار واحدة منها فيؤثر الصمت .

وبقدر ما سعد أحمد برؤية ولده ، أسف لما تعرض له والده ، فطوّقه بذراعه وسارا معاً نحو المنزل وهو يلاطفه ويشجعه ، فروى له الحاج عمر وقد اغرورقت عيناه بالدموع كيف ان اخاه محموداً صار يعمل في أحواض السفن ويساعد في نفقات الأسرة ، فناداه الى جانبه وربت على كتفه معرباً له عن اعتزازه به محيياً رجولته المبكرة .

وفي الهزيع الأول من الليل ، وكان قنديل الزيت لا يزال مضيئاً في كوة صغيرة من الجدار ولكن نوره لا يضيء سوى جزء صغير من الغرفة ، أخذت نجمة تطرح على أحمد سؤالاً تلو سؤال عن صحته وعمله وعن البحر والغوص وعن النوخذة ورفاق الرحلة ، وتشرب أجوبته كالظامئة



دون أن ترتوي .

وكان لديه أشياء كثيرة يريد ان يقولها لها ، ولكنه انتفض فجأة وقال : « لم أستطع أن آتيك بدانة فريدة يا نجمة ، ولكني أتيتك بحصباة ثمينة ! » ثم أخرج من جيبه فصاً من اللؤلؤ بيضاوي الشكل وقدمه لها .

فأطرقت المرأة قليلاً ثم اعتدلت في جلستها وقالت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مترددة : « أريد أن أطلب منك أمراً » فقال : « أطلبي ما شئت » فقالت : « أريد أن تعدني بأن لا نبيع هذه اللؤلؤة للاستعانة بثمنها على سداد الدين أو أمور العيش أو أيّ شأن آخر ، وأن نحتفظ بها مهما قاسينا من صروف الزمن ... نحتفظ بها ونضيف اليها ما نستطيع من أجل ولدنا الذي أريد أن نعدّ له مستقبلاً آخر ، بعيداً عن البحر وهوله وشقائه ... أريد أن ترسله الى بغداد ليتعلم في المدارس العالية ... » .

فضحك أحمد طويلاً وهو يتخيل ابنه شاباً متعلماً يضاهي أولاد التجار ، وقال لها : « إني أعدك بذلك ... » ونهضت نجمة لفورها فخبأت اللؤلؤة في صندوق عرسها المصنوع من خشب الساج وصفائح النحاس .





طفل الآلام

خرجت الكويت من ركودها كأنها أفاقت من نوم عميق ، وبدأت تضج بالحيوية والنشاط ، وبرز دور الطواشين تجار اللؤلؤ ، واشتدت الحركة في الأسواق ، وامتلأت المقاهي بالزبائن ، وتكاثر عدد الرائحين والغادين على رصيف الميناء ، بينما شرع ربابنة السفن يستعدون لرحلات تجارية الى الهند وموغاديشو وزنجبار ، أما أحمد فأخذ يستعد مع بعض أصدقائه للقيام برحلة غوص ثانية الى المغاصات القريبة ، وهي رحلة تسمى.« الردة » أي العودة الصغيرة التي تتجاوز موسم الغوص ولا تلتزم بقوانينه ولا يقوم بها الا عدد قليل نظراً لبرودة المياه ، ولكنه فوجىء بمرض

ابنه مرضاً شديداً حيرّه وأقضّ مضجعه .

وكان المستوصف الأميركي لم يتحول بعد الى مستشفى وليس فيه سوى طبيبة واحدة ومساعدة لها ، ولم يكن في وسع هذه السيدة الرحيمة ان تعالج جميع المرضى في الكويت بالعناية اللازمة لكل منهم ، فكانت الأمهات يقفن في الصف أمام المستوصف مع أولادهن في انتظار دورهن ، وكانت نجمة تعاني نصباً شديداً قبل الوصول الى غرفة الطبيبة التي لم تقصرً في بذل جهدها وإغداق نصائحها ، ولكنها لم تكتم الأم الصغيرة ان ابنها في حاجة الى عناية مستمرة وسهر متواصل وهو أمر لم يتوافر في المستوصف بعد لعدم وجود أسرّة وممرضات فيه .

واشتدت العلة بالطفل الصغير حتى أشفى على الموت . كانت عيناه متورمتين وجسمه هيكل عظمي وبطنه منتفخة كالطبلة . وجاءتها امرأة من قريباتها بحرز لتعلقه في صدره وقالت ان الملاّ كتب لها فيه قصيدة « الجلجوتية » ذات الفائدة الكبرى في الحماية من الجن والعفاريت . ونصحتها امرأة أخرى بأن تأتيه بخرزة السحر من عند « راعي الطبوب » ، ولما سألتها ما هي هذه الخرزة أجابت بأنها خرزة سيدنا سليمان وقد سرقها الهدهد من النبي وحصل عليها بعض السحرة . وأكدت المرأة انها رأت الخرزة بعينها وهي تأكل الشعير. أما أمها فقالت لها : « يا بنتي ابنك صابته نفس ما صلت على النبي » وكانت تعني انه أصيب بالعين . وتابعت قائلة : « أنا لاحظت ان جارتك أم سعد عينها حارّة » ثم غادرت المنزل وعادت بعد قليل وقد أحضرت من عند العطار قليلاً من الشب وبادرت فوضعته على النار ففار وتفحم ، ولما برد أخذته ونظرت اليه طويلاً ثم قالت تخاطب نجمة : « ألا ترين انه يشبه أم سعيد ... أنظري جيداً ... انك لا تعرفينها لأنها ترتدي عباءتها ... ولكن لاحظي ... أليس هذا هو وجهها المحروق وانفها الأعوج ؟ ... الحمد لله ان عينها قد خابت الآن ، وسيشفى الطفل قريباً باذن الله » .

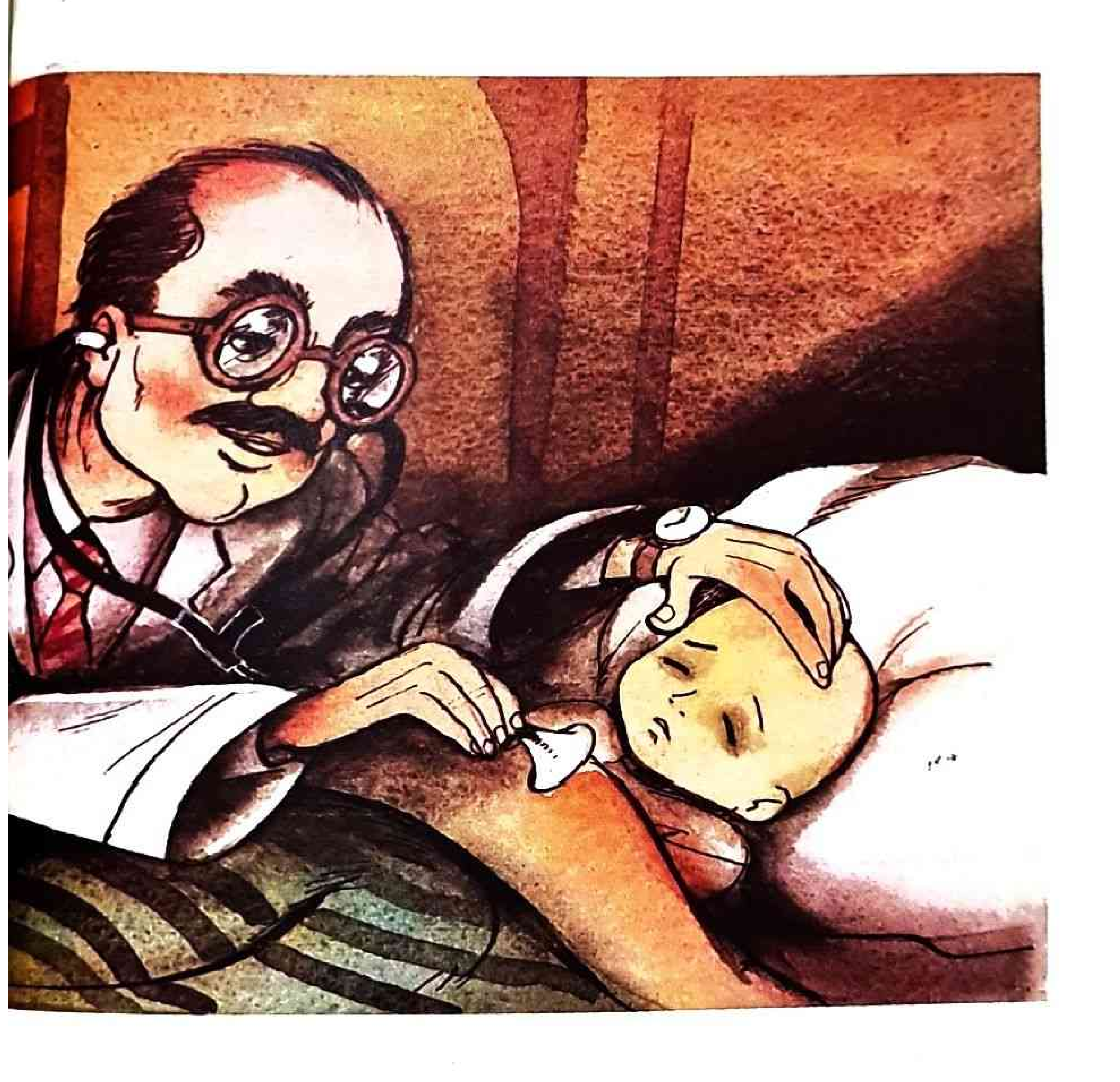
ولما لم يشف الطفل اقترحت عليها عجوز ذات خبرة ان تذهب به الى مقام الخضر في جزيرة فيلكا التي انتقل اليها

من صخرة في الكويـــت بخطوة واحدة ، وأصرّت على أن تتم هذه الزيـارة في يوم الخميس ، ولمـــا سألتها عن سبب ذلك أجابت بأن الخضر ينتقل من مقره في البصرة الى مكة كل يوم أربعاء ، ثم يقضي يوم الخميس في فيلكا ، ويعود يوم الجمعة الى البصرة . واتفق ان الحاج عمر كان في الفناء وسمع ما تتحدثان به ، فناداها وحظّر عليها بصوت حازم وواضح ان تخوض بعد الآن في مثل هذه الخرافات التي تتلبس لباس الدين والدين منها براء .

وكان جو البيـت قد غدا جواً جنائزيـاً موحشاً يسوده سكـــون مخيف ، وقد علا الأسى وجه أحمد وامتلأ قلبه هماً وكمداً ، حتى ليخيل لمن يشاهده وهو يروح ويجيء في أرض الغرفة انه كبر عشر سنوات دفعة واحدة . أما نجمة فكان قلقها مزدوجاً ، اذ كان خوفها على زوجها لا يقلّ عن خوفها على ابنها ، فهي لم ترَ وجهه قط على هذه الحال ، وهو يرفض الطعام ولا يطوف بعينه نوم . انه سجين الحزن المتواصل ، ولم يكن له من عزاء الا ابتسامة نجمة ، ولكن الابتسامة الرقيقة لم تعد ترتسم على وجه المـــرأة الشابة ، وهي تصطنعها اصطناعاً اكراماً لأحمد كي تفرج كربته وتروّح عنه وتخرجه من انطوائه الشديد ، ويـا لها من ابتسامة حزينة مغتصبة كانت تضيع في المحيـا الجميل الذي انطبعت على سماته الحلوة آثار الألم الدفين .

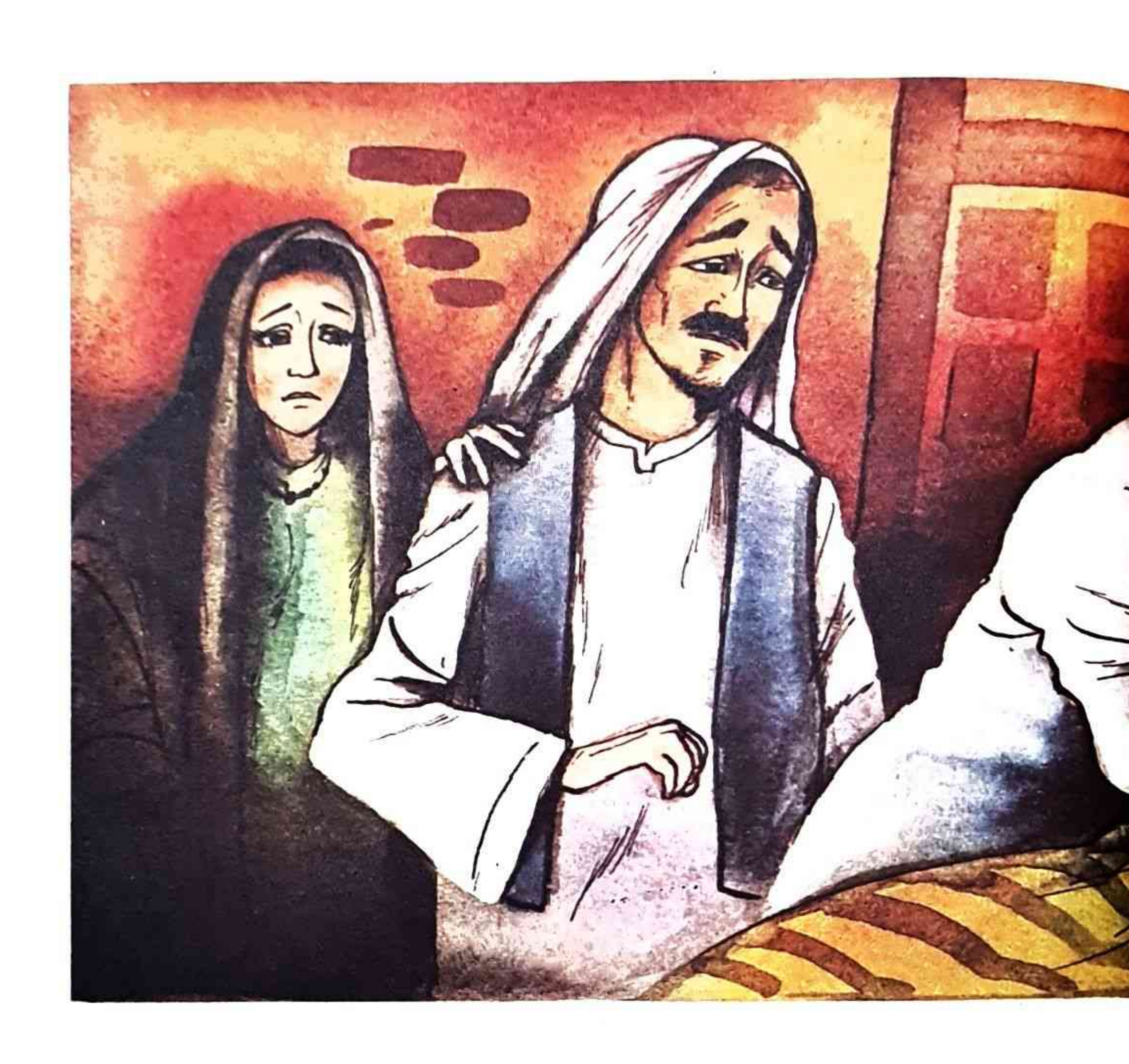
وشعر أحمد بالجهد الذي تبذله والشقاء الذي تعانيـــه ، فنظر اليها يوماً في حنان وقال لها حزيناً متألماً : « كم هي سعيـدة تلك الأيـــام التي عشناها قبل هذه الكارثة ! » فانفجرت باكيـة قبل أن يتمّ كلماته ، إلا انها وضعت يدها على وجهها تخنق عبراتها ، فوضع يده على رأسها ملاطفاً ، وجعل يخفف من حزنها ويهدىء من روعها ، ثم أحاطا بالطفل يقدمان له ما نصحتها الطبيبة من عناية واهتمام .

وفي ذات يوم استقبلت نجمة زوجها ببشرى مفاجئة . قالت له انها علمت من جارة لها ان في الكويت طبيباً سورياً زارها حديثاً وهو يقوم بزيارة المـرضى ويعالجهم بمهارة شهد بها الكثيرون ، فقال : « هل هو طبيب حقاً أم انه من أولئك المتطفلين



على الطب والمشعوذين الدجالين ؟ » فقالت مؤكدة : « بل هو طبيب حقاً وهو يعالج المرضى بدافع انساني لا بقصد الربح والاكتساب » فكانت هذه الكلمات أشبه بخشبة يراها الغريق فيتعلق بها ، وما لبث حتى غادر المنزل وعاد بعد ساعة مع الطبيب .

شرع الطبيب يفحص الطفل بدقة



زائدة ، وأعاد الفحص مرات ، وأحمد ونجمة يتبادلان نظرات القلق المحموم ، ثم التفت اليهما قائلاً وقد التمعت عيناه وبدا صوته واضحاً وقاطعاً كالفولاذ : « لا تقلقا ... لا خطر على الطفل وسوف يشفى بإذن الله » .

كـان الزوجان يصغيـان اليـه بانتباه ، وعيـونهما شاخصة اليـه معلقة بشفتيـه ،

فهزت كلماته كيانها وبددت السحب التي تخيّـم على نفسيهما . وسرعان ما استعاد أحمد نشاطه وثقته بنفسه ، وعاودت نجمة ابتسامتها وبريق عينيها ، فقد شفيا من القلق الرهيب الذي سيطر عليهما في انتظار شفاء ابنهما من مرضه المخيف .

وتحوّلت الغرفة الصغيرة الى مستشفى صغير بنظافتها وأدويتها وشراشفها البيضاء ، وتحولت نجمة الى ممرضة نشيطة تساعد الطبيب وتسهر على المريض طوال الليل . وكان الطبيب يأتي لزيارة الطفل كل يوم وفي بعض الأحيان مرتين في اليوم الواحد . فلم ينقضِ أسبوعان حتى وقفت الأم أمام وليدها فاغرة الفم خافقة القلب تصعّد صرخة دهشة يتداخل فيها الضحك والبكاء ، حين رأته قد استعاد وجهه بعض لونه وافترّ ثغره عن ابتسامة عذبة . لقد كانت دهشتها اشراقاً مملوءاً بالأمل ، ونسمةً من الرجاء أعادت الى البيت فرحه القديم وفجّرت فيه ينابيع الضياء .

وانقضى أسبوعان آخران قبل أن يشفى الطفل المريض تماماً . ووقف أحمد ونجمة سعيـــدين أمام فراشه وقد جلس يلعب ويضحك ويمدّ يده الصغيرة محاولاً أن يطال بها يديهما المتماسكتين بمودة وحرارة .

كـــانت العاصفة قد بلغت ذروتها في صباح ذلك اليوم من أيام يناير ، واشتدت زمجرة الرياح وتصادمها ، وبدا البحر هائجاً يعلو ويهبط ويتلاعب بمراكـــب الميناء يمنة ويسرة ، بينما انخفضت الغيـوم تلبي نداء المـوج وكأنها تتسابق معه فتزيـده غضباً وجنوناً . ولكن العاصفة الثائرة ما لبثت حتى توقفت في المساء فتبددت الغيـــوم واستكـانت الريـح وأشرق نور بهيّ من فوهة في وسط السماء ، وأقبل الطبيب ليودّع الأبوين ويـــطمئن على مريضه للمرة الأخيرة ، ووقف متهلل الوجه مشرق الابتسامة وقد نسي ما عاناه من قلق وجهد أمام هذا الانتصار الباهر .

وبدت أمارات القلق على وجه أحمد أمام هذا المشهد . كان عليه ان يكافىء الطبيب على صنيعه ولم يكن لديـــه سوى بضع روبيـــات . نظر الى نجمة وغادر الغرفة ، فتبعته الى الغرفة الثانية بخطى بطيئة وقد



رفّ على شفتيها طيف ابتسامة . كان الضوء يصل الى الغرفة واهناً ، فخيّل له انه رأى في عينيها نظرة غامضة متحفزة حار في فهمها . ترى هل خالجتها الفكرة التي طرأت له ؟ ابتسم لها ووقف ينتظر بادرتها في حين كانت تنتظر بادرته . ووقفا ساكنين يدور بين أعينهما حوار صامت ، بينما كانت ابتسامته تزداد حلاوة وتعبيراً .

فتشجعت وسارت بخطى ثابتة نحو صندوق عرسها وأخرجت اللؤلؤة المخبأة فيه وأعطته إياها . فأخذها بهدوء وضحك ، فقالت : « ماذا يضحكك ؟ » فقال : « طريقتك في الاحساس بالمواقف ! » .

وعادا الى الغرفة الثانية دون أي تردد ، وقال أحمد بصوت غامض النبرات وهو يقدم اللؤلؤة للطبيب : « لقد دخلت داري يا سيدي وليس لديّ ما أضيفك به ، وشفيت ولدي ولا مال لديّ أكرمك به ، فاقبل مني هذه اللؤلؤة مشكوراً ، فهي حق الضيافة الواجبة عليّ وحق الجميل الذي طوّقت به عنقي ! » .

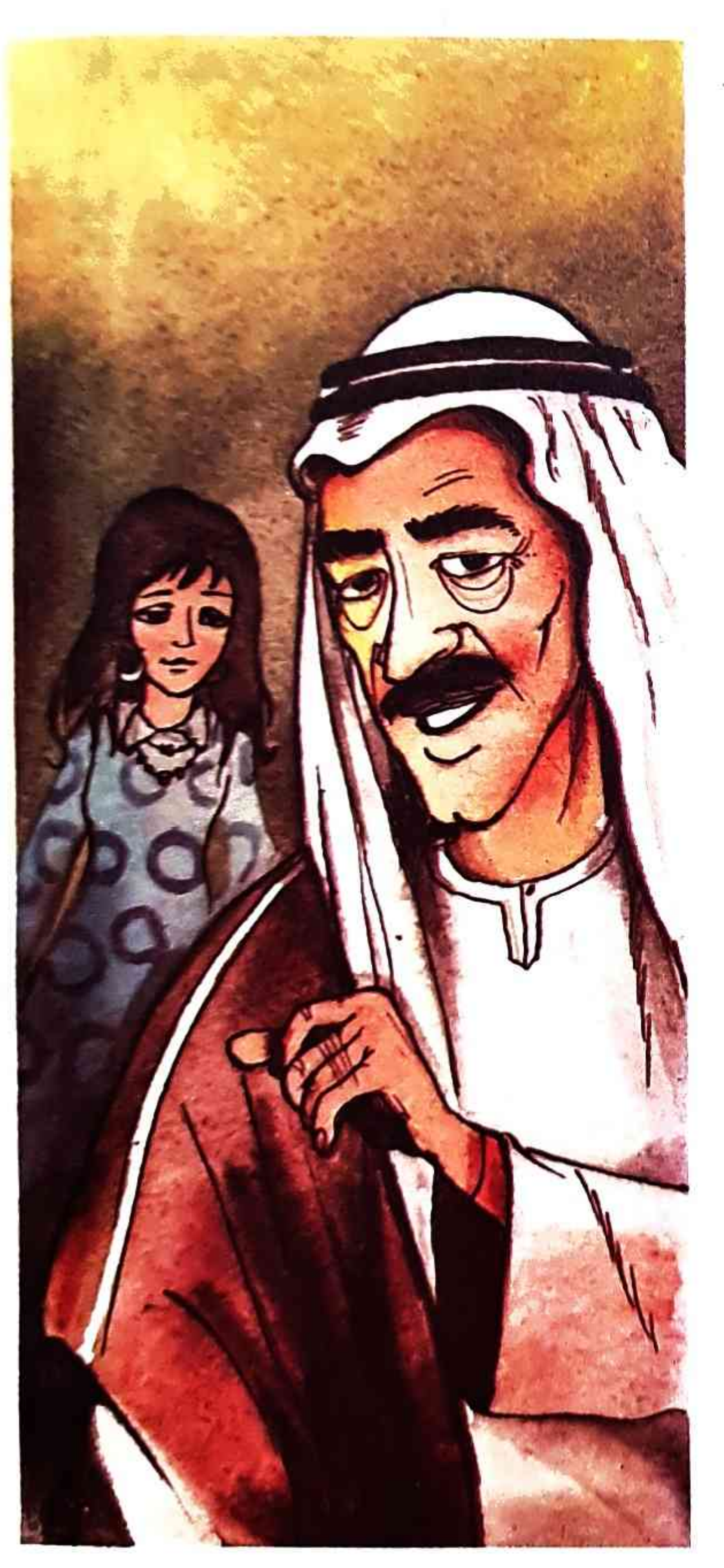
وشعر أحمد ونجمة وهما يشيّعان الطبيب بأنهما يعيشان أجمل أيامهما ، وأنهما أسعد زوجين في العالم !



الأيَّام كتبت ومحت

توقف ناصر الشرقي عن الكـلام ، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة غامضة لم تستطع زوجته وأولاده أن يميزوا هل كانت تعبر عن سروره أم انها زفرة ألم لما أثارته تلك القصة في نفسه من دفين الذكريات ، ثم استأنف الحديث وهو يكبت اضطراب نفسه فقال :

ما أطول الطريـق التي سلكتها الكويت ، وما أقسى الآلام التي عانتها . ان ماضي هذه الأسرة هو ماضي الكويت الذي هو ماضيكم ... ان أحمد الغواص هو جدكـم ، ونجمة تلك الأم المثلى هي جدتكـم ، وذلك الطفل المـريض الذي اشتراه ابواه بلؤلؤة نادرة والذي لم يتوقع له



الناس ان يعيش ويصبح رجلا ، هو أبوكم ، وقد سمي ناصر الشرقي لأنه كان يسكن في حي الشرق ، وكـانت المـدينة تتألف من منطقتين منطقة الشرق والقبلة وقد اشتهر ابناؤها بالعمل في الغوص والصيـد والسفر ، ومنطقة المـرقاب التي اشتهر سكانها بالعمل في البناء والتجارة ، وكـانت السوق تفصل بين حي الشرق وحي القبلة ، والصفاة تفصل بينهما وبين حي المرقاب .

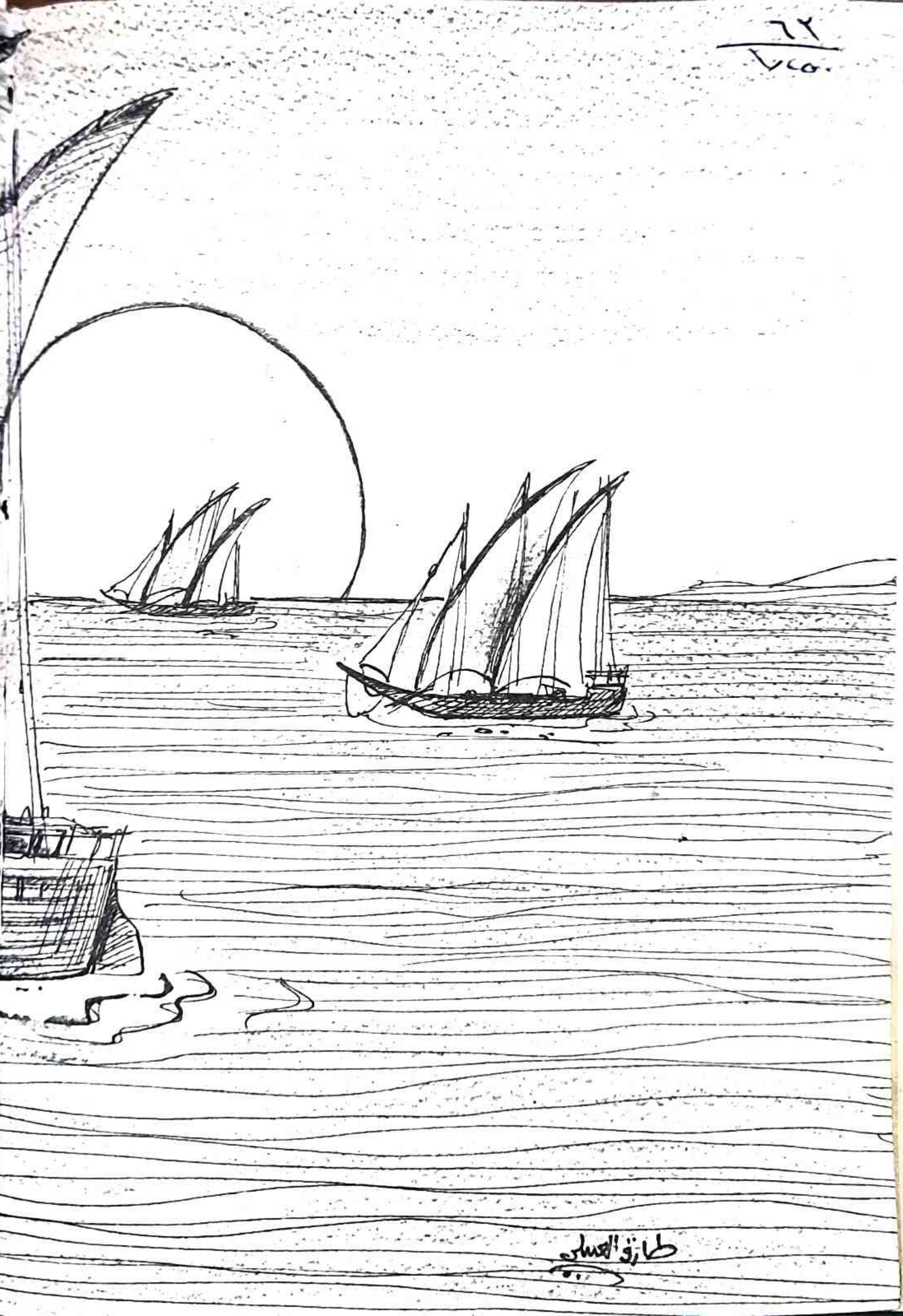
اني أرى في عيونكم دموعاً وعلى وجوهكم امارات الكآبة ، لا ... لم أحدثكم هذا الحديث لتحزنوا وتكتئبوا ، بل لتأخذوا منه العبرة **والعظة**. ان الأيام كتبت ومحت ، وصارت ذكريـات الكفاح فرحاً وبهجةً ودرساً يشدكم الى اعتناق قيـم البطولة وممارسة مغامرات الشجاعة ، في الصراع المستمر من أجل حياة أفضل ، ليس من الناحية المادية التي توافرت لكم ، بل من ناحية العدالة والكرامة ، وقبول تحديـات العصر وخوض معاركها والتغلب على مشكلاتها بالعزيمة والمعرفة .

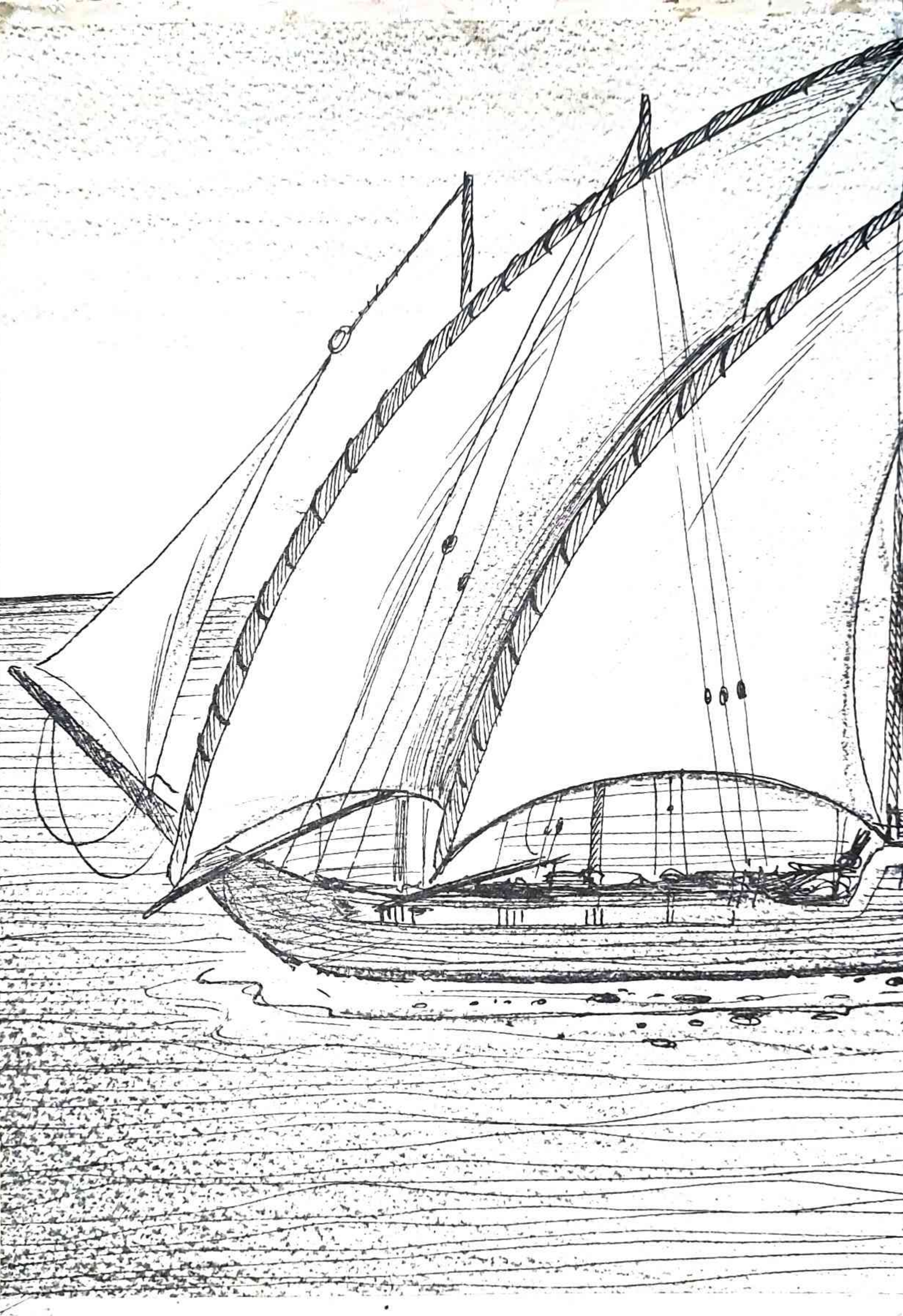
ان ما يميز إنساناً من انسان ، ليس مدى

ما يملك من مال ، بل مدى ما يملك من معرفة وأخلاق كريمة وقيم إنسانية وشخصية بناءة واعية متوازنة . ذلك الكويتي الذي تكوّنت شخصيته القوية وإرادته الفولاذية في مجابهة الهول ومواجهة الخطر واقتحام المغامرة ، يجب أن يستمرّ في أولاده وأحفاده بكل عنفوانه وجبروته ، فلا يدع للترف المادي سبيلاً لافساده وإبعاده عن روح المسؤولية والقائه في متاهات الفراغ والضياع والغرور الأجوف ، بل يحتفظ بمواهبه وكفاياته حية فاعلة بتصريفها في قنوات علمية وصناعية وفنية وأخلاقية ، ومسايرة موكب الحضارة ليس باستهلاكها وحسب بل بصنعها وانتاجها ، فليست الحضارة اقتناءً للسيارة وسفراً بالطائرة ومشاهدة للتلفزيون ، وإنما هي المشاركة في اختراع هذه الأدوات وفي إبداع كل ما يزيد الحياة جمالاً وخيراً ويرتفع بالبشرية نحو مزيد من الحرية والعدالة .

وكان الليل قد انتصف ، فغادر ناصر الشرقي القاعة الى غرفته ، تاركاً أفراد أسرته تحت وطأة الذكرى وفي ذهول المفاجأة .

رجعنا في كتابة هذا الجزء ، وجميع أجزاء هذه السلسلة ، الى معظم ما كتب عن الكويت في اللغات العربية والفرنسية والانكليزية وفي مقدمتها مؤلفات أحمد البشر ، أيوب حسين ، حمد محمد السعيدان ، سيف مرزوق الشملان ، عبد العزيز الرشيد ، عبدالله النوري ، يوسف القناعي ، يعقوب الغنيم .


طارق العسلي



الثمن : دينار كويتي